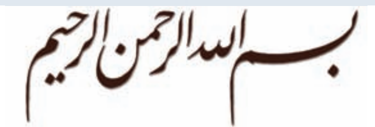


حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
العدد الثالث/السنة الأولى/(أبريل - يونيو) 2006
أنت قلبنا الخفاق وروحنا النابض
محمد فتح الله كولن
الرسول ﷺ في علو شأنه ورفعة منزلته
أ.د. علي جمعة
أهداف الاحتفال بالمولد النبوي
أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
فصل المقال عند الحكيم بديع الزمان
أ.د. طه عبد الرحمن
التسامح في الإسلام
أ.د. محمود حمدي زقزوق
وجعلنا نومكم سباتاً
أ.د. زغلول النجار
محمد



أنت في قلوبنا دائماً أبداً

أقلام كتّاب هذا العدد من «حراء» تعلو وتتسامى لتلاحق -ولو من بعيد- أفقًا من آفاق محمد ﷺ الموغلة في الارتفاع والسموّ. فرسالته ﷺ سرمدية أبدية لا تغيب ولا تأفل؛ لأنها تنــزّلت من روح الحق، والحق دائميّ الوجود لا يطاله الموت أو العدم. وقد يكون من أشد أحداث التاريخ رعبًا وانتكاسا أنْ يأتي مَن يتسافه على روح الحق دون شعور بأية مسؤولية أخلاقية تردعه عن هذا السفه.

فمحمد ﷺ -كما جاء في المقال الرئيس- خفّاقُ قلوبنا ونبضُ أرواحنا ومفتاحُ أفكارنا وقلوبنا؛ منه نستنشق أنفاس الحياة، وننهل دوام البقاء، وأنداءَ الرأفة والرحمة.

فالأبحاث والمقالات التي يتضمنها هذا العدد يتناول كلٌّ منها جانبًا من جوانب الشخصية المحمدية ذات الأبعاد الكونية. فحياته أشبه ما تكون بالمحيط الهائل السعةِ الذي يشكل بارتفاع موجه عالمًا من القوى الدافعة والمحركة للإنسان نحو وحدة بشرية وعالمية تتعايش فيها الشعوب بنوع من التضامن والتكافل الاجتماعي والإنساني، وهذا هو جوهر رسالة محمد ﷺ للبشرية.

في هذه الرسالة تذوب وتتلاشى جميع المتناقضات التاريخية في الطبيعة البشرية ليعمّ السلام، ويفشوَ الأمن والأمان، ويغدو الإنسان أخا الإنسان... وعلى البشرية -إذا هي لم تفقد حجاها- أن تُصغي لكلماته التي صاغها لها من قلبه الرؤوف الرحيم؛ إنّ في قلبه من سعة الرحمة ما يمكن أن يغذي روح الخليقة بأجمعها، وينير القلب البشري بنور الشوق إلى الخلود في كنف الله تعالى وفي جنّته.

ويُسعد «حراء» أن تحلي بعضًا من صفحاتها بما قاله بعض المنصفين من المستشرقين في حقه صلوات الله عليه، ويسعدها كذلك أنْ تنشر على الملأ وثيقة هامّة حفظها لنا التاريخ وهي «وثيقة المدينة»؛ حيث تعدُّ نموذجًا رائعًا من نماذج ترسيخ فكرة المواطنة الصالحة في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، إلى جانب «القصيدة الحُجْرية» التي تنمُّ عن عمق الإيمان ورسوخه في الشعب التركي وعظم عشقه للرسول ﷺ، ولا أدل على ذلك العشق من حرصه على الاحتفاظ في متاحف إسطنبول ببعض آثاره ﷺ، وهي أمانات مقدسة يجلها ويعتز بها ويفديها بروحه؛ وصورها موزعة على صفحات هذا العدد من «حراء».

إن «حراء» اليوم بستان أخضر وربيع أزهر؛ فالناظر في بسيطها الممتدّ نحو أبعاد شاسعة في الفكر والمعرفة لا يسعه إلا الامتداد معها في إزجائها للإنسان في أحضان الأبدية على نحو سريعٍ صامتٍ ملهوجٍ، لأنه سيرى وجوده الأفضل في مرآتها الصقيلة التي تعكسُ جوهر الإنسان وحقيقته، وهل «حراء» إلاّ الإنسان في أصفى روحه، وأنقى وجدانه وأشرف قلمه؟!



العدد الثالث / السنة الأولى

(أبريل - يونيو) ٢٠٠٦

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

سعر النسخة: مصر (١٠) جنيهات. المغرب (١٥) درهماً. الأردن (١,٥) دينار. الإمارات (١٠) دراهم. البحرين (١) دينار. السعودية (١٠) ريالات. سلطنة عُمان (١) ريال. السودان (٣٥٠) دينار. قطر (١٠) ريالات. الكويت (١) دينار. ليبيا (٢) دينار. الجزائر (١٥٠) دينار. سوريا (١٠٠) ليرة. لبنان (٣٠٠٠) ليرة. تونس (٢,٥) دينار. اليمن (٣٥٠) ريال. العراق (٢٠٠٠) دينار. تركيا (٤) ليرة. أوروبا وأمريكا (٤) دولار.



مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.

صاحب الامتياز
Publishing Director
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

رئيس التحرير
Editor - in - Chief
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

مدير التحرير
Managing Editor
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

الإخراج الفني
Graphic Designer
أسيد إحسان الصالحي
usalihi@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HİRA MAGAZİNE
Emniyet Mah. Huzur sok.
No:5 34676
Üsküdar - İstanbul/Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
e-mail:
hira@hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – حي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +2022619204
المحمول: +20123785192
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة
International printing house
P.O BOX 312
Public Free Zone. Nasr city
Tel: 02022740
Heliopolis - Cairo
Egypt

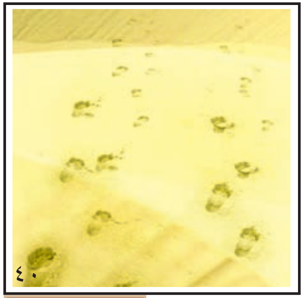
رقم الإيداع
1306–1879

المحتويات



٤

المقال الرئيس



٤٠

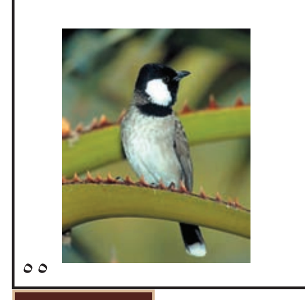


شعر



٤٢

أدب



٥٥

علوم



أنت قلبُنا الخفّاق وروحنا النابض

محمد فتح الله كولن

كانت ولادتك ولادة الإنسانية أيضا... لقد استطاع القاصي والداني والصديق والعدو أن يبصر بالنور الذي نشرته صوابه وأخطاءه، ويقيّمها على أساسه وبواسطته، فيبلغ بفضله من الاطمئنان مبلغا معينا. نحن جميعا ما كان بمقدورنا أن نفهم الجنة التي نشعر بها في أعماق قلوبنا حق الفهم، وندرك سعادتها الأبدية حق الإدراك إلا ببيانك السماوي... أجل، بشلال بيانك الساحر استطعنا أن نتوجه نحو ما يبتغيه منا الحق تعالى وما يرضاه لنا.

إن كانت أعيننا اليوم تَرِفُّ بتسبيح الله تعالى وتقديسه... وإذا كانت قلوبنا اليوم تنبض بشوق الوصال... فأنت، أنت الذي أشعلت فتيل هذه المشاعر والأفكار العلوية في أعماق قلوبنا... أنت من علّمتنا وأشرت إلى الذرى السامية الحقيقية للإنسان وللإنسانية... أنت من أوقدتَ في قلوبنا جمرات الحب وأذقتنا نشوة الوصال... أنت من كشفتَ للمتوجهين إليك وإلى رحابك بكل توقير عن السرّ الحقيقيّ للوجود... وعلاوة على هذا فقد أشرتَ ودللتَ -آخذًا إقرار وتقدير وتصويب الملايين بل البلايين من الناس- أصحاب الأرواح المنصفة إلى قيم ثابتة لكي يظل كل إنسان على ماهيته الحقيقية.

إن النفوس التي تذوقت حقيقة الحب بفضلك واهتدت إلى آفاق الحياة الروحية الواسعة بدأت تَشْدوا -وكأنها مطبوعة على الحب والتوقير- بترنيمات سامية منبعثة من أعماق الروح وكلمات حكيمة تعبّر عن عمق الأبعاد الإنسانية لديها، وأضحى أصحابها ممثِّلي القيم الإنسانية على مدى العصور، فما خاب وما ضاع من اقتدى بهم. لقد وجد جل العالم الإنساني فيهم وفي أصواتهم وكلماتهم وأقوالهم نبضات وجدانه التي لم يكن قد اكتشفها حتى ذلك اليوم، واطّلع كل واحد بفضلهم على أعماقه الداخلية.

أجل، بفضلك أصبح جميع الناس الذين بدوا مختلفين جدّاً بعضهم عن بعض، بل أصبح حتى الجن وأصحاب الأرواح الطيبة -بمعنى من المعاني- يتكلمون عن معان ما كانت تخطر على بالهم من قبلك ولا تنعكس على أحاسيسهم، وإن انعكست فما كانوا يستطيعون التعبير عنها، وإن استطاعوا التعبير فما كانوا يجيدونها، ولا يضعون كل شيء في مكانه الصحيح؛ ولكنهم أصبحوا يُتقنون هذا بفضلك ويحلون مشاكل ومعضلات عديدة.

بعد أن شرّفتَ العالم بقدومك، وتربّعت على عرش قلوبنا حللتَ رموز وشفرات أسرار المعاني العميقة لمعنى ولماهية الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، وأطلقتَ بذلك الألسن عن عقالها، وعلمتَ الغربان كيف تتحوّل إلى بلابل وعنادل صدّاحة، وأثرت رغبة الصديق والعدو في الإصغاء إلى أعماقهم والتعبير عنها، كل من زوايا مختلفة.

وبفضل قيامك بتأمين ظهور القيم الإنسانية والعالمية المشتركة، وصَهر آلاف وجهات النظر والآراء والمفاهيم في بوتقة واحدة وجمعها حول محور واحد من الروح، فقد أحسّ

الجميع بأشياء كثيرة من عالم وأفق أرواحهم. ومن ثم فقد تخلت الإنسانية بأجمعها، بل حتى عالم الجن وعالم الأرواح الطيبة -بفضل المعاني المترشحة من رسالتك وبفضل لب وجوهر هذه الرسالة- عن القوالب الجامدة لبعض المفاهيم فتملصت منها وولجت إلى عالم التغيير والتجديد.

وسواء أشعر به الجميع أم لم يشعروا فإن القسم الأعظم من الإنسانية استطاع تحقيق العديد من أنواع التجديد والعديد من النجاحات بفضل منظومة الإيمان التي وضعتها وبفضل الأهداف الإنسانية التي أشرتَ إليها وشجعت عليها.

وحتى فجر الإنسانية ويومها الذي طلعت فيه كان الظلام يسود كل جزء في هذا العالم. كان الجميع يرتجفون خوفاً من وحشة العدم، ويقلقون من المشاكل التي تحيط بهم وتحاصرهم. ولكن بفضل رسالتك التي كانت تبشّر بحلّ كل مشكلة وتلبية كل حاجة وتحقيق كل أمنية وكل أمل، انشرحت الأنفس وتفتحت الآمال في الأرواح، فبدأت نسائم الأمل تهب على القلوب التي كانت تتقلب على جمرات اليأس، وصدحت أنغام الأمل والسلوان في كل مكان، إلى درجة أن النغمات السحرية التي بدأت تتعالى وتنتقل عبر النسائم كانت تبشّر القلوب الحزينة على الدوام بالسعادة والبهجة، وتتحدث معها عن الحب، أي كيف تُحبّ وكيف تُحَبّ، وتنفث الحياة في العلاقات الإنسانية وروابطها التي بدت وكأنها تحتضر، وتسند وتحيي المحبة والعشق، وتمد المشاعر الإنسانية -التي هجعت في القلوب منذ عصور- بالحركة والنشاط، وتدعو الناس جميعاً إلى الغوص في أعماق قلوبهم لكي يعرف كل إنسان حقيقته، ويقدِّر إنسانيته حق التقدير.

إن أنفاسك الدافئة المخلصة أحْيت القلوب الظمأى إلى الحب والأمل والسعادة. أما القلوب الظمأى التي انحنت توقيراً لرسالتك فقد أثارت فيها انفعالاً قدسياً، وساقت الأرواح السامية بحمّى العبودية لله إلى تدقيقات وتفحصات جدية، تدقيقات تلتمع وتبرق في الطرق التي تسلكها الأدمغة الباحثة عن النور.

لقد كنت بإيمانك المدهش الذي لا يعرف التردد أو الخور وبأصحابك الميامين الأوفياء الذين وقفوا معك تسعى نحو أمل كبير فوق كل أمل، وهو أن تُسمع صوتك للإنسانية جمعاء. لقد بذلتَ كل ما في وسعك طوال حياتك السنية وفي كل فصل من فصولها بل في كل نفس من أنفاسك العطرة من أجل السعادة الأبدية للإنسانية جمعاء، ولم ينقطع جهدك هذا ووفاؤك وإخلاصك أبداً. وما كان كل هذا لينقطع أو يتوقف لحظة، لأنك كنت تسعى لتحقيق أحلام الإنسانية جمعاء لكي تكون لجهودها معنى، ولكي تحقق الأرواح الظّامئة للأبدية أملها وحلمها... فهذه هي رسالتك، ومن أجلها أُرسلتَ وبُعثت... لتأمين الحاجات القلبية والروحية والمادية للإنسانية، ولتحقيق أملها في الحب والتحابُب، ولتحقيق أحلامها وآمالها في السعادة هنا وفي الدار الآخرة... كان هذا الأمر يشكل عمقاً مهماً من رسالتك، وكنت قد عزمت على تحقيق هذا الأمر.

كانت رسالتك عالمية وكونية، لذا كان كل شخص يأخذ منها حسب سعة قلبه ويقيّمها حسب قابليته وحسب جو قلبه وأحواله. وذلك بفضل الطابع الفطري فيها، وكون الأحكام التشريعية فيها مسايرة للقوانين السائدة في الكون وموافقة للطائف القلبية والروحية والعقلية الموجودة في الإنسان. فكل قلب، وكل فؤاد يجدها موافِقة لفطرته وملائمة لها، ويطلع بواسطتها وفي جوها الروحاني على الأسرار العميقة للوجود. أجل، كل ما سمعناه منك، وكل ما فهمناه من أشياء وأمور عند قراءتنا لتصرفاتك وخُلُقك الرفيع فهمناها وسعدنا بها وفسّرناها، مع أن مصدرها مصدر سام تنزلت منه موجات إثر موجات حسب عقولنا ومستوانا، فأحاطت بأرواحنا واحتضنتها، وداعبت مشاعرنا وأحاسيسنا، وأحسسنا بقربها منا وكأنها نبتت ونمت ثم ترعرعت في إقليم قلوبنا وفي بستانها؛ وشعرنا بدفئها حتى لكأنها توشك أن تتدفق من صدورنا. لقد أحاطت بماهيتنا الإنسانية



تعرضتَ لجحود أتباعك وعدم وفائهم، ولهجوم أعدائك. ولو تركنا الجهود المباركة لسلفنا الصالح وأجدادنا الأوفياء جانباً فسندرك بأننا لم نستطع أن نُعرِّفَ العالم بك. وكلما تذكرنا الآن محاولات جبهة الكفر والتهجم عليك تمتمنا: «ما أجحدنا وما أبعدنا عن الوفاء!!»



وتفرست في أعيننا وتمعنت وكأنها سحرتنا بطعمها وبلاغتها من رأسنا حتى أخمص قدمينا. كان هذا الأمر خصلة من خصالك تفردت بها، وسجية من سجاياك لم يشاركك فيها أحد.

استطعتَ أن تخاطب الناس جميعاً خطاباً يعلو على جميع المشارب والثقافات الخاصة، ولكن بأسلوب فائق الجمال سامي الدرجات لا يجرح أحداً ولا يخدش مشاعره... تخاطب كل الناس فتؤثر في الأرواح المهيأة وتوقظها. خطابك بليغ... خطاب ذو رموز خاصة وإشارات وإيماءات تقوم بمضاعفة معنى التعابير وتُعمقها وتُجسدها... لقد فتحت أبواب أسرار الأشياء والحوادث أمام من سيأتي من بعدك، بل فتحتها على مصاريعها أمام بعضهم حتى سموا إلى تذوق نشوة عالم آخر... نشوة لا تبلغها أي نشوة أخرى ولا ترقى إليها. ونحن لا نزال نحتفظ في قلوبنا بهبات السماء وهداياها (الآيات القرآنية) وعندما نقوم بالتعبير عنها وترجمتها إلى الواقع بتعابير جديدة حسب مقتضيات العصر نتذكرك على الدوام، ليس مرة واحدة بل ألف مرة... ومن أعماق قلوبنا ننحني إجلالاً لك وتوقيراً. فهذا حق لك، كما هو واجب على جميع رعاياك وأتباعك الذين تنبض قلوبهم بالوفاء لك.



كانت رسالتك عالمية وكونية، لذا كان كل شخص يأخذ منها حسب سعة قلبه ويقيّمها حسب قابليته وحسب جو قلبه وأحواله. وذلك بفضل الطابع الفطري فيها، وكون الأحكام التشريعية فيها مسايرة للقوانين السائدة في الكون وموافقة للطائف القلبية والروحية والعقلية الموجودة في الإنسان.



أنت هبة للكون من قِبَل الخالق جل وعلا لا نظير لها ولا مثيل، ورسالتك وتعاليمك أمانة منه تعالى إليك. لقد أصبحتَ عند الذين عرفوا هذا وأدركوه أعزّ وأحب من أرواحهم، فقد علموا مدى دَينهم لك. لذا فما فتئوا مخلصين لك وأوفياء، وقد حصلوا على أضعاف وأضعاف مقابلَ هذا الوفاء.

ولكن جاء يوم ظهر فيه بعض المختلين نفسيّاً وعقليّاً من جحورهم من منتسبي ثقافات أخرى وقاءوا أقذار كفر قلوبهم وأرجاسها وبدأوا يتحرشون بك ويصمونك -حاشاك ألف مرة- بالبداوة، ويَصِمُون صوت السماء ورسالتك بأنها «قانون الصحراء»، ويحاولون حبسك في عهد معين، ويتجرأون على القول بأنك تعود «لذلك العهد ولذلك القوم»، وشجعوا بهذا عالماً مليئاً بالأحقاد والخصومات والعداوات، واستعانوا على ذلك برسوم كاريكاتيرية شنيعة بعيدة عن الخُلق؛ أيْ تعرضتَ لجحود أتباعك وعدم وفائهم، ولهجوم أعدائك. ولو تركنا الجهود المباركة لسَلَفنا الصالح وأجدادنا الأوفياء جانباً فسندرك بأننا لم نستطع أن نُعرِّفَ العالم بك. وكلما تذكرنا الآن محاولات جبهة الكفر والتهجم عليك تَمْتَمنا: «ما أجحدنا وما أبعدنا عن الوفاء!!»

وعلى الرغم من كل شيء فلا نشك مطلقاً بأن عهداً جديداً ذا جذور معنوية وروحية قوية، وذا جينات صافية... عهداً زاهراً ذا جو وماء وتربة تبشر بعالم جديد قريب من رحابك التي تفوح شفقة ورحمة... وسيكون هذا بعثاً جديداً آجلاً أم عاجلا. لقد بدأ الآلاف بل مئات الآلاف منذ الآن ينتظرون هذا العهد الجديد ويترقّبونه ويعيشون على أمله.

لا أستطيع أنا، ولا يستطيع الآخرون أن يطلبوا منك العفو والصفح... نستحي من هذا ونخجل... ولكننا لم نشك لحظة من سعة كرمك. وفي أصعب الأوقات والأحوال، عندما أظلمت آفاقنا، وهجم الخريف علينا، وخربت الطرق وتهدمت الجسور... حتى في هذه الأوقات لم نصرف عيوننا ولم نبعدها عن تعقب آثار قدميك وكرّرنا قول «كتّانجي زاده»:

«أنت عزيزنا... مرشدنا... أستاذنا... سيدنا... نورنا المضيء... ضياء معنوياتنا في الدارين... كل إخواني متفقون على هذا». لنعبّر مرة بعد مرة عن وفائنا لك وإخلاصنا. نواقصنا كثيرة، وإهمالنا كبير، ولكنه سيبقى كقطرة بجانب بحار عفوك وسماحتك. إذن:

مولاي وسيدي!... لا تقطع كرمك عن البؤساء والفقراء!

أيليق بسلطان الكرم قطع كرمه عن المعدمين والمتسولين؟!

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



«يكفي محمداً [ﷺ] فخراً أنّه خلّص أمةً ذليلةً دَمَويةً من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريقَ الرُّقيّ والتقدم؛ وأنّ شريعةَ محمدٍ [ﷺ] ستسودُ العالم لانسجامها مع العقل والحكمة.»

الأديب الروسي تولستوي



الحب – التأسّي – الأخلاق

أهداف الاحتفال بمولد سيد الأنام

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

لقد صح عن رسول الله ﷺ أنه رُئي في يوم من أيام الاثنين صائماً، فسأله أحد الصحابة عن ذلك –والشهر ليس شهر رمضان– فقال ﷺ لَه: «ذاك يومٌ وُلدتُ فيه» (رواه مسلم). وهذا يعني أنه ﷺ يَحتفي باليوم الذي ولد فيه. فقد صحّ أنه ولد يوم الاثنين، وتوفي أيضاً يوم الاثنين، ومعاذ الله أن يكون احتفالُ المصطفى ﷺ بيوم ولادته عن طريق صيام ذلك اليوم بدافع من التباهي، معاذ الله، وإنما هو شكر لله سبحانه وتعالى أن اصطفاه وأرسله رحمة للعالمين. ثم إنه تعليم لنا نحن المسلمين من أمة المصطفى ﷺ، فإذا كان مصدرُ الرحمة يحتفي بيوم وِلادته، فالناس الذين تلقَّوا هذه الرحمة وأكرمهم الله عز وجل بها أَوْلى بالاحتفاء والاحتفال بيوم ولادته ﷺ.

وها نحن في الأيام التي تفوح فيها ذكرى ولادة المصطفى ﷺ، ولا شك أن من دواعي تجديد البَيعة لرسول الله وتجديد المحبة له والنظر إلى حقيقة اتباعنا له عليه الصلاة والسلام أن نحتفي بذكرَى ولادته، لا لذات الاحتفاء.

ليس الاحتفاء مقصوداً بذاته وإنما هو وسيلةٌ إلى هدف؛ الهدف أن نجدد حبنا للمصطفى ﷺ، فهذا هو الغرَض الأول، ثم أن نتأسّى بالمصطفى ﷺ وهذا هو الهدف الثاني، وصدق الله إذ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، الهدف الثالث أن نجعل من الأخلاق التي أكرم الله عز وجل بها رسوله محمداً ﷺ منهج دعوتنا إلى الله، وأساسَ حوارنا مع عباد الله سبحانه وتعالى، فأنعم بالاحتفال بذكرى مولد المصطفى ﷺ عندما يكون سُلَّماً لبلوغ هذه الأهداف الثلاثة.

١. الحبّ

الهدف الأول تغذية محبّتنا لرسول الله ﷺ، ولا أقول إيجاد محبتنا، فأنا لا أتصور أن يكون في الدنيا مسلم آمن بالله وآمن بنبوة محمد ﷺ ثم لم يُصبح قلبه وعاءً لمحبة هذا الرسول الذي اصطفاه الله وأرسله رحمة لنا: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

مؤمن بالله وبرسول الله ثم لا يكون محباً لله؟! هذا أمر لا يمكن أن يكون، ولكن المأمول من احتفائنا واحتفالنا بذكرى مولد المصطفى ﷺ أن تُمتِّعنا ذكراه بمزيد من محبته وأن تتجدد محبتُه ﷺ في أعماق نفوسنا. ونحن نعلم أنه ﷺ قال فيما صحّ عنه: «لا يؤمن أحدُكم حتّى أكون أحبّ إليه من ماله وولده والناس أجمعين» (رواه البخاري). لم يَقُل المصطفى ﷺ هذا الكلام إطراءً لنفسه –لا، معاذ الله– وإنما بلَّغنا ما أمره الله عز وجل أن يبلِّغنا إياه. أمَره الله أن يعلِّمنا بأن محبتنا لرسول الله جزء لا

يتجزّأ من الإيمان بالله، فكان لا بدّ أن يبلّغنا ذلك وإلا ما أُدّيتْ أمانة الله ﷻ، ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسالَتَه﴾ (المائدة: ٦٧).

تلمّسوا في أفئدتكم مكان محبتكم لرسول الله ﷺ، واعلموا أنه الدواء الذي يقضي على كثير من أمراضنا النفسية التي تجتاح عالَمنا الإسلامي كله. محبة المصطفى ﷺ هي الدواء لو أن أفئدتنا كانت أوعية لهذا الحب. ونحن الذين حيل بيننا وبين رؤية المصطفى ﷺ، ولم تكتحل أعيننا بمَرآه وحُجبنا عن رؤيته بزمن يبلغ مداه أربعة عشر أو خمسة عشر قرناً، لا بدّ أن يستبدّ بنا الحنين إليه، ولا بدّ أن يستبدّ بنا الشوق إليه... إلى الذي تشوّق إلينا قبل أن نتشوّق إليه. ألا تذكرون يوم زار البقيع قُبيل وفاته، سلّم على أهل البقيع ومعه ثلّة من أصحابه ثم قال: «وَدِدتُ أنّي قد رأيتُ إخواننا» قالوا يا رسول الله ألسنا إخوانك؟ قال «بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعدُ وأنا فَرَطُهم على الحَوض» (رواه النسائي).

أرأيتم كيف تشوّق رسول الله إلينا؟ أفلا نُبادله شوقاً بشوق، أفلا نبادله تَحْناناً بتحنان، حباً بحب؟! أعتقد أننا بحاجة إلى أن نجدد حبنا لرسول الله، وليس حُبُّنا لرسول الله إلا غُصناً متفرّعاً عن حبنا لله ﷻ. يا عجباً لجماد لا يعي، وليس له قلب كقلوبنا ينبض به، يحنّ إلى رسول الله ﷺ، لأنه أُبْعد عنه، ثم لا يكون الإنسان ذو القلب الشجيّ ذو المشاعر الوهّاجة مثل هذا الجماد في حنينه إلى رسول الله، أيُعقل ذلك؟!

أتذكرون ما قاله البخاري في صحيحه وغيرُه يوم وُضِع المنبر لرسول الله ﷺ بإذن منه، وأُبعد الجذع الذي كان رسول الله ﷺ إذا وقف يخطب استند إليه... أُبعد الجذع إلى مكان قصيّ في المسجد، ولـمّا وقف رسول الله ﷺ يخطب سمع كل من في المسجد أزيزاً كأزيز المرجل ينبعث من ذلك الجذع الجامد الذي لا يَعقل فيما نتصور، والذي ليس له قلب كقلوبنا فيما نتخيّل، حنّ إلى رسول الله ﷺ لأنه أُبعد عنه بضعة أمتار، حتى نزل رسول الله ﷺ من المنبر واستلم الجذع وظل واضعاً يده عليه إلى أن سَكَن. وإني لأتخيل أن المصطفى ﷺ كان يقول له وقد وضع يده عليه: «ماذا تريد؟ إن شئتَ غرستك فوق أعلى رابية من قمم الأرض، نخلة سحوقاً، يتمتع الناس بثمارِكَ إلى يوم القيامة»، ولكن الجذع لم يعجبه ذلك. قال له من خلال ما يُترجَم إليه ذلك الحنين والأنين: «لا، أريد قربك، أريد القرب منك».

ألسنا أحرى بأن نقول هذا لحبيبنا المصطفى ﷺ؟ بيننا وبينه أزمنة طويلة حالت دون رؤيتنا له وقربنا منه، ألسنا أَوْلى من هذا الجذع بأن نقول له: «نريد قربك يا رسول الله».

الحب... تلمّسوا محبة رسول الله بين جوانحكم، إن عدتم إلى أنفسكم فوجدتم أن محبة الدنيا والأهل والعشيرة قد تغلّبتْ على محبة رسول الله، فاعلموا أنكم تعانون في حياتكم الإسلامية من مشكلة لا حلّ لها. ومهما قَدّمت العقول والأفكار حلولاً فالعقلانية لا تقدم في مثل هذه الحالة حلاًّ ناجزاً، القلب هو الذي يقدم الحل. العقل يشير كما يشير الشرطي لمن تاه عن الطريق إلى الجادة التي ينبغي أن يسلكها، ولا يفعل العقل أكثر من ذلك؛ أما الحادي الذي يسوق، ويدفع إلى الطريق فهو الحب، هو الذي يجعل المؤمنَ يركل بقدمه الدنيا وأهواءها، هو الذي يجعل المؤمن يركل بقدمه كل ما ينافس دين الله وشِرْعة الله وأوامر الله ﷻ. نعم، هذه هي الغاية الأولى من احتفائنا بمولد المصطفى ﷺ، وإنني لأسأل الله أن يجعل قلوبنا أوعية صافية لحب الله أولاً ولحب حبيبه المصطفى ﷺ ثانياً.

٢. التأسي

الغاية الثانية من احتفائنا بذكرى حبيبنا المصطفى ﷺ أن نجدد البيعة لــه، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١)، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ أي فاتبعوا رسول الله، لاحظوا هذا الربط، يقول لي الله عز وجل: «أتحبني؟ أتحب مولاك وخالقك؟»، «نعم يا رب». قَدِّم



اللحية الشريفة للرسول ﷺ
متحف طوب قابي – إسطنبول

البرهان على ذلك. برهان محبتي لله اتباعي لرسول الله ﷺ ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ (النساء: ٨٠). تعالوا نجدد بيعتنا لرسول الله ﷺ، تركَنا على سنة بيضاء نقية ظاهرها كباطنها لا يزيغ عنها إلا هالك، لا تبتعدوا عنه، لا تبتعدوا عن سنة نبيكم المصطفى ﷺ.

أعود إلى ذلك الحديث الذي تشوق فيه رسول الله إلينا. أقول «إلينا»، آملاً أن نكون نحن من أولئك الذين اشتاق إليهم رسول الله ﷺ. حديثٌ نصفه الأول بشَارة ونصفه الآخر إنذار، قال: «سأكون فرَطاً لهم على الحوض» أي سأستقبلهم على الحوض، قال له أحد أصحابه: أتعرفهم يا رسول الله، يعني أنت لم ترهم، قال: «أرأيتم لو أن رجلاً له خيول غُرٌّ مُحَجّلة في خيول دُهْمٍ بُهم أفكان يعرفها؟» قالوا: نعم.

أفرأيتم لو أن رجلا له خيول غُرٌّ، أي لها صبغة بيضاء على جبينها ولها أَسورة بيضاء على قوائمها، هذا معنى «غُر محجلة»، وسط خيول «دُهم بهم»، أي سوداء أفكان يعرفها، قالوا: نعم، قال: «فأنا أعرفهم غرّاً محجلين من آثار الوضوء»، ثم قال: «ألا لَيذادَنَّ رجال عن حوضي» أي ليطردن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، فأقول: «ألا هلمّ، ألا هلم» فيقال: إنك لا تدرك كم بدّلوا من بعدك، أقول: «فسُحقاً، فسُحقاً، فسحقاً».

تعالوا نحرص على أن نتبع حبيبنا المصطفى ولا نبدّل ولا نغير، أنتم تُدْعَوْن بين الحين والآخر إلى التغيير، إلى التبديل، إلى التطوير، إياكم!. والله إنها رُقية شيطان، اثبتوا على العهد، نفِّذوا وصية رسول الله ﷺ يوم قال وهو في مرَضه الذي توفي فيه: «ولسوف تجدون أثرةً من بعدي فاصبروا حتى تَلْقوني على الحوض». اصبروا على الشدائد إن رأيتموها شدائد، اصبروا على أوامر الله يُعنكم الله سبحانه وتعالى. هل تعلمون أعظم مزية متع الله بها رسوله المصطفى؟ إنها مزية الأخلاق الإنسانية الرفيعة، وما أعلمُ أن الله أثنى على حبيبه المصطفى بمزية أجلّ وأسمى وأبقى من مزية الأخلاق التي صاغه الله عز وجل عليها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤). قفوا أمام هذه الكلمة الموجزة التي لا تتناهى معانيها، والتي تنبض بدلائل محبة الله ﷺ لرسوله، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

٣. الأخلاق

وأقول بحق، لو أن الله عز وجل علِم أن هنالك سبيلاً لتنمية الأخلاق الإنسانية الفاضلة في حياة الإنسان غير سبيل العقيدة الإيمانية وغير سبيل المبادئ الإسلامية، لأمَر عباده بسلوك ذلك السبيل، لكن الله الحكيم العلي القدير علم أن السبيل الأَوحد الذي يفجر الأخلاق الإنسانية، ومن ثم الإسلامية السامية بين جوانح العبد هو ربوبية الواحد الأحد وهينمته عليه. هذا هو السبيل الذي يحقق الأخلاق الإنسانية الفاضلة، ألسنا مسلمين؟ ألسنا مؤمنين بالله؟ ألسنا قد عاهدنا الله على أن نتأسى برسوله، إذ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، إذن فتأسّوا بأخلاق المصطفى ﷺ الذي يقول: «أيها الناس! إنكم لن تَسَعوا الناسَ بأموالكم، لتسَعْكم منهم بسطةُ الوجه وحسن الخلق» إنكم لن تسعوا الناس، الناسَ كلهم مسلمين وغير مسلمين، لن تسعوا الناس بأموالكم، أموالكم لا تكفي لشراء قلوب الناس أبداً، لكن هناك سبيلٌ آخر لا يكلّفكم شيئاً من هذا، فلْتسعكم منهم بسطة الوجه وحسن الخلق.

حسن الخلق هو السلاح الأمضى على طريق الدعوة إلى الله، حسن الخلق هو الدواء الأنجع الذي يجعلكم محبوبين في قلوب الناس، الذي يجعل لكلماتكم سلطاناً على عقولهم ومن ثّم سلطاناً على أفئدتهم. الخلُق الإنساني السامي الذي هو الثمرة الأولى لشجرة الإسلام هو السبيل الذي افتتح به المسلمون من قَبلكم شرق العالم وغربه. الإسلام الذي وصل إلى ربوع آسيا الوسطى وغيرها وإلى جنوب شرقي آسيا، بأي وسيلة وصل؟ لم يصل إلا بواسطة الأخلاق الإنسانية الراشدة. وانظروا إلى المسلمين هناك كم يتعشقون الإسلام. إنّ



تراب القبر الشريف للرسول ﷺ
متحف طوب قابي – إسطنبول

تعشقهم للإسلام صدًى لدعوة ذلك السلف، يوم دخلوا ربوعهم فرأوا في سلوكهم ما لم يروه في سلوك الآخرين، رأوا في إنسانيتهم، في وداعتهم، في لطفهم، في حبهم، في إخلاصهم، ما لم يروا مثل ذلك لا من قبلُ ولا من بعد. من أين جاء ذلك كله؟ من الإسلام. تعشقوا هذا الدين الذي فجّر هذه الأخلاق الإنسانية الراشدة، هذا الإسلام الذي وصل إلى ربوع الغرب الذي أشرقت شمسه في إسبانيا، كم هي قطرات الدماء التي أُريقت في سبيل ذلك؟ ولا قطرة. كيف انتشر الإسلام خلال عشرات السنوات لا خلال قرون؟ انتشر الإسلام إذ تعشق أهل هذه البقاع في المسلمين أخلاقهم، تعشقوا فيهم صدقهم، إنسانيتهم، لطفهم، وداعتهم، فترسّخ الإسلام في قلوب أولئك الناس.

وأنتم أحفاد ذلك الرعيل بحاجة ماسة اليوم إلى أن تُصححوا صورة الإسلام في أذهان كثير من الناس الذين شُوهت حقيقة الإسلام في أذهانهم ورؤوسهم. كيف تستطيعون أن تصححوا هذه الصورة التي شوهت، أَبِخُطَب رنّانة؟ أبداً، لا تفيد الخطب وحدها. أبتهديدات وإنذارات؟ أبقوة مادية؟ لا تكفي وحدها، إنما الذي يصحح هذا الخطأ الذي ران على عقول كثير من الغربيين، بل على أفئدتهم أيضاً، أن تُروهم من سلوككم ومن نفوسكم صفحة الأخلاق الإنسانية الراشدة، وأن تجعلوا دعوتكم إلى الله عز وجل سائرةً تحت مظلة الأخلاق الإنسانية كما كان رسول الله ﷺ يفعل. تعشّقه الناس على الرغم من قسوة قلوب الأعراب، تعشقوه لتواضعه وأخلاقه وحبه، لإنسانيته العجيبة الغريبة.

> يا عجباً لجِــذْع لا يعي ولَيـس لـه قلب كقلوبنا يحنّ إلى رســول الله ﷺ، لأنه أُبْعد عنه، ثم لا يكون الإنسان ذو القلب والمشاعر مثل هذا الجماد في حنينه إلى رسول الله!

انظروا إلى ذلك الأعرابي الذي دخل مسجد رسول الله ﷺ فأخطأ في بعض تصرفاته؛ فنال منه بعضُ الصحابة الذين كان عهدهم بالإسلام قريباً، نالوا منه ببعض الكلمات، فأقبل إليه المصطفى ﷺ وأجلسه إلى جانبه، ولاَطفه، وحدّثه بالكلام المحبَّب، ففاض قلبه حبّاً لرسول الله ﷺ ورفع يديه يقول: «اللّهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً»، فتبسم المصطفى ﷺ وقال: «لقد حَجّرْت واسعاً يا أخا العرب».

هذا هو رسول الله ﷺ، تأسَّوْا به وكونوا شعاعاً، كونوا مصابيح الهداية، ولن تكونوا كذلك إلا بأخلاقكم الإنسانية الراشدة. بَرهِنوا على أخلاقكم السامية بتآلفكم، بالود الذي ينبغي أن يشيع فيما بينكم، بإسقاط عوامل الخلافات والتدابر. الأخلاقُ الإنسانية ليست كلمات مدبّجةً وإنما هو سلوك. عندما تزول الخلافات الَّتي تستشري بين الحين والآخـــر بين المسلمين، عندما يشيع الإيثار بين المسلم وأخيه المسلم بدلاً من الأثرة، عندما أتنازل عن فكر اجتهادي تبنَّيتَه في سبيل أخوة إسلامية، وعندما تتنازل عن رأي اجتهادي تبنَّيتَه في سبيل أخوة إسلامية أجلُّ وأبقى؛ عندئذ ينظر الغرب إليكم، يتعشقونكم. وحتى لو كنتم صامتين فإنّ صَمتكم المقدس لسوف يكون أعظم مصباح يهدي السالكين إلى الله، يخرج التائهين من ظلمات تِيههم إلى الإسلام.

هذه ثلاثة أهداف، نحتفي بذكرى مولد رسول الله ﷺ لتحقيقها. فالاحتفال ليس أمراً مقصوداً لذاته وإنما هو سبيل إلى هذه الأهداف الثلاثة.

جددوا محبة رسول الله بين جوانحكم، اجعلوا منه بعد الله مَهوى قلوبكم. جـــددوا البيعة مــع رســـول الله ﷺ، على أن تتبعوا هَدْيه وسُنّته؛ وألا تبدّلوا حتى لا تُطردوا من حوضه إذا قـــام الناس غداً لرب العالمين، وحتى لا يقال لكم «فسُحقاً، فسحقاً، فسحقاً».

جمِّلوا سلوككم بالأخلاق الإنسانية الراشدة، واعلموا أن الثمرة الوحيدة في الدنيا لشجرة الإسلام هي ثمرة واحدة لا ثاني لها، ألا وهي الأخـــلاق الإنسانية الراشدة؛ حُسْن خُلق المسلم مع أهله، مع أولاده؛ حُسن خُلق المرأة مع زوجها وأولادها؛ ثم حُسن خلق المسلم مع إخوانه المسلمين يتآلفون، يتضامنون، يكونون مثال الوحدة؛ ثم حُسن خلق المسلم مع سائر عباد الله عز وجل.

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق – سوريا.

وثيقة المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

١.هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله]، بين المؤمنين والمسلمين من قريش و[أهل] يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، ٢.أنهم أمّة واحدة مِن دون الناس. ٣.المهاجرون من قريش على رَبعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفدُون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ٤.وبنو عَوف على رَبعتهم يتعاقلون معاقلَهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ٥.وبنو الحارث [بن الخزرَج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ٦.وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ٧.وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ٨.وبنو النّجّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ٩.وبنو عَمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ١٠.وبنو النَّبِيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ١١.وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ١٢.وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرَحا (أي مثقلا بالدَّين وكثرة العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. ١٢/ب.وأنْ لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. ١٣.وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] مَن بغى منهم، أو ابتغى دَسيعةَ (كبيرة) ظلم، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولدَ أحدهم. ١٤.ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر ولا ينصرُ كافرًا على مؤمن. ١٥.وأنّ ذمّة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. ١٦.وأنّه مَن تبعنا من يهود فإنّ له النصرَ والأسوةَ غير مظلومين ولا مُتناصرين عليهم. ١٧.وأنّ سِلم المؤمنين واحدةٌ، لا يُسالِم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم. ١٨.وأنّ كل غازية غَزَت معنا يعقب بعضها بعضًا. ١٩.وأن المؤمنين يُبِيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله. ٢٠.وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدًى وأقومه، ٢٠/ب.وأنّه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن. ٢١.وأنّه مَن اعتَبط مؤمنًا قتلا عن بيّنة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول [بالعقل]، وأن المؤمنين عليه كافّةً ولا يحلُّ لهم إلا قيام عليه. ٢٢.وأنّه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن يَنصر مُحدِثًا (مجرما) ولا يُؤوِيه، وأن من نصره أو آواه فإنّ عليه لعنةَ الله وغضبَه يوم القيامة، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل. ٢٣.وأنكم مهما اختلَفتم فيه من شيء فإنّ مردَّه إلى الله [عز وجل]وإلى محمد [صلى الله عليه وسلم]. ٢٤.وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين. ٢٥.وأنّ يهود بني عوف أُمّة مع المؤمنين، لليهود دِينهم وللمسلمين دِينهم، مَواليهم وأنفسهم إلا من ظلَم وأثم، فإنه لا يُوتِغ (أي لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. ٢٦.وأنّ ليهود بني النّجّار مثل ما ليهود بني عوف. ٢٧.وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف. ٢٨.وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف. ٢٩.وأنّ ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف. ٣٠.وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف. ٣١.وأنّ ليهود بني ثَعلَبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا مَن ظلم وأَثم فإنّه لا يُوتِغ إلا نفسَه وأهلَ بيته. ٣٢.وأنّ جَفْنَةَ بطنٌ مِن ثعلبة كأنفسهم. ٣٣.وأنّ لبني الشُّطَيبَة مثل ما ليهود بني عوف، وأنّ البرَّ دون الإثم. ٣٤.وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم. ٣٥.وأن بطانة يهود كأنفسهم. ٣٦.وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد [صلى الله عليه وسلم]. ٣٦/ب.وأنّه لا يَنحَجِز على ثأر جُرحٍ، وأنه مَن فَتَك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظَلم، وأنّ الله على أبَرِّ هذا. ٣٧.وأنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأنَّ بينهمً النصر على مَن حاربَ أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم. ٣٧/ب.وأنه لم يأثم امرؤٌ بحليفه، وأنّ النصر للمظلوم. ٣٨.وأنّ اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. ٣٩.وأنّ يَثرب حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة. ٤٠.وأنّ الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثم. ٤١.وأنّه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها. ٤٢.وأنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدث أو اشتجار يُخاف فسادُه، فإنّ مَرَدَّه إلى الله [عز وجل] وإلى محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم]، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه. ٤٣.وأنّه لا تُجار قريش ولا مَن نَصَرها. ٤٤.وأنّ بينهم النصر على مَن دهم يثرب. ٤٥.وإذا دُعوا إلى صلح يُصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا مَن حاربَ في الدِّين. ٤٥/ب.على كل أناس حِصَّتهم مِن جانبهم الذي قِبَلهم. ٤٦.وأنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البِرّ المحض مِن أهل هذه الصحيفة، وأنّ البرّ دون الإثم لا يَكسب كاسب إلا على نفسه، وأنّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه. ٤٧.وأنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالمٍ أو آثم، وأنه مَن خرجَ آمِنٌ ومن قعد آمِنٌ بالمدينة، إلا مَن ظلم وأثم، وأنّ الله جارٌ لمن بَرَّ واتّقى ومحمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم].

(المصدر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢/١٥٠-١٥١).

وثيقة المدينة المنورة

وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان

علي بولاج *

لا نبالغ إن قلنا إن «الحوار» أصبح سمة عهدنا الحالي. الحوار يعني قيام المجموعات المختلفة للجماعات الإنسانية التي تعيش معاً بحوار فيما بينها محاولين بذلك فهْم أحدهم للآخر والاعتراف به واستخراج الأسس المشتركة الموجودة بينهم على قدر الإمكان والتي تشكّل أرضية قانونية تساعدهم على العيش معاً بأمن وسلام.

ومن زاوية النظرة القرآنية فإن البشر خُلقوا بخصائص غنية ومختلفة، وإن من الخطأ اتخاذ هذا الاختلاف سبباً للصراع وللخصام؛ فمثل هذا الخطأ سيؤدِّي إلى الإخلال بالأمن وبالسلام، ويُلحق ضرراً كبيراً بالإنسانية، وينسف جميع جسور التفاهم. بينما الصواب هو عدّ كل هذه الاختلافات كزهور فوّاحة تملك كل زهرة منها جمالاً وعطراً خاصّاً بها تشكل حديقة إنسانية مباركة.

هناك طريقان لتعايش الناس معاً؛ أحدهما استعمال القوة والبطش، والثاني قيام الأناس الأحرار بالوصول إلى التفاهم فيما بينهم وإرساء هذا التفاهم بعقد قانوني معيَّن، وتعيين أسلوب التصرف والتعامل وحقوق كل إنسان ومسؤولياته. ولم توضع الدساتير والقوانين والعهود والمواثيق الإنسانية إلاّ لتأمين هذا الأمر. ولا شك أنه لولا وجود متون ونصوص المعاهدات والمواثيق لَما تحقق أي سلام اجتماعي ولا أي وحدة سياسية. ولكن المهم هنا أن هذه المعاهدات يجب أن تسجل بإرادة إنسانية حُرة وبرضَا الأطراف ودون أي إكراه.

والمواضيع المطروحة حاليّاً أمام الديمقراطية مهما تباينت وجْهات نظرنا مدحًا أو ذمًّا، وكذلك المقاييس التي يتخذها ويتّبعها أَيُّ نظام سياسي هي لتأمين قيام كل مجموعة من المجموعات الاجتماعية المختلفة باستعمال إرادتها بكل حرية لتؤثّر على مراكز اتخاذ القرارات ومعرفة مدى استعمال المؤسسات المدنيّة لحقوقها في التعبير.

ويمكن القول بأن الإسلام يملك في هذا الموضوع تراثاً غنيّاً. فقد قام التاريخ الإسلامي والتجربة التاريخية للإسلام بشكل عام على قبول الخصوصيات المتنوعة لكافة المجموعات المختلفة دينية كانت أم قومية أم ثقافية أم لغوية. وقد وَجدت أديان ومذاهب وثقافات عديدة وأقوام عديدون إمكانيةَ العيش بأمان في ظل الإسلام.

وإن وثيقة المدينة مثال واضح وجيد طبّق في الواقع العملي فعلاً وأنموذج للعيش معاً بسلام. فلنطالع وثيقة المدينة ونتفحصها من هذه الزاوية.

القيمة التاريخية للوثيقة

كان المستشرق الألماني «ولهاوسن -Wellhausen» أول من عرّف هذه الوثيقة وقدمها للأوساط العلمية في العصر الحديث. وندين إلى الأستاذ محمد حميد الله رحمه الله وإلى بحوثه الواسعة في اشتهار هذه الوثيقة في العالَم الإسلامي، وفي معرفتنا معرفة شاملة بالظروف التاريخية وبالبيئة الاجتماعية عند صدور هذه الوثيقة.

كان أول من سجل هذه الوثيقة هو محمد بن إسحاق (توفي ١٥١ هـ)؛ ويقال بأن ابن سيد الناس وابن كثير قاما بتسجيل هذه الوثيقة ودَرْجها في كتبهما؛ كما قام البيهقي بإدراج الفقرات «١-٢٣» الخاصة بتنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار وبيان سنَدها. وذكر ابن هشام (توفي ٢١٣ هـ) هذه الوثيقة في كتابه «السيرة النبوية» بصورة أكثر تفصيلاً من ابن إسحاق. وترِد الوثيقة أيضاً بكاملها في كتاب «الأموال» لأبي عبَيد، وفي كتاب «الأموال» لحميد بن زنجويه (توفي ٢٤٧ هـ).

وتشير كتب الحديث إلى أن الفقرات «١-٢٣» التي تتناول العلاقات فيما بين المسلمين كتبت في بيت أنس بن مالك ﷺ؛ أما الفقرات «٢٤-٤٧» التي تنظم علاقات المسلمين مع المشركين واليهود فكتبت في بيت بنت الحارث. علماً بأننا -إن أهملنا أسماء القبائل والأماكن- نجد أن جميع الأسس القانونية لهذه الوثيقة وجميع الأحكام والمبادئ الواردة فيها موجودة في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

والأرجح أن هذه الوثيقة كتبت ووقع عليها في العام الأول للهجرة (٦٢٢ م)، وقد قام «ولهاوسن» بتجزئة المتن الأصلي الذي أورده ابن هشام وأبو عبَيد إلى ٤٧ فقرة، ثم قام حميد الله بتجزئة بعض هذه الفقرات فيما بينها فبلغ هذا الرقم إلى ٥٢ فقرة.

البيئة الاجتماعية

إن الدعوة الإسلامية التي بدأ بها نبيّنا ﷺ في مكة عام ٦١٠م لم تجلب إلى الإسلام إلا نفَراً معدودين. وعندما زاد عددهم بمضي الوقت جُوبِهوا بعراقيل ومضايقات عديدة. وبعد مضيّ ١٣ سنة في مكة بقي عدد المؤمنين محدوداً، فلم يبق أمام الرسول ﷺ والمؤمنين إلا الخروج من مكة إلى مكان آخر يجدون فيه الحرية والأمن، لذا اضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة مرتَين في بادئ الأمر ثم إلى المدينة.

كانت مكة من أهم مراكز السياسة والتجارة في شبه الجزيرة

العربية. ومما كان يزيد من أهميتها وجود الكعبة فيها –وكانت من أهم المراكز الدينية منذ السابق– ووجود أكبر القبائل العربية وأعرقها فيها. ونظراً لخصائصها هذه، فقد نُظمت مكة تنظيماً جيداً من الناحية السياسية والإدارية. وبجانب مركزيتها السياسية والبيروقراطية كانت تبدو –بسبب وجود القبائل الحرة فيها– في مظهر حكم كونْفدرالي، إلا أن المدينة –مدينة الهجرة– كانت تفتقر إلى مثل هذه الوحدة السياسية. لأنه بينما كانت قبيلتا قريش في مكة وثقيف في الطائف تُحققان الوحدة السياسية، إلا أن هذه الوحدة السياسية لم تكن متحقّقة في المدينة لوجود نزاع مستمر وحروب بين القبائل الموجودة فيها كقبيلتَي الأوس والخزرج العربيتَين والقبائل اليهودية (قبائل بني قَينقاع وبني النضير وبني قرَيظة). ويقول «ولهاوسن» إن رسول الله ﷺ نجح في إرساء وحدة سياسية عجيبة في ذلك الجو المضطرب في المدينة بين هذه القبائل التي كانت في حاجة ماسّة إلى وحدة سياسية. وكانت هذه الوحدة السياسية أمراً جديداً وغريباً لم يألَفه العرب. وتيقن الباحثون بأن الفروق بين مكة والمدينة من ناحية البيئة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ساعدت على تجذر المسلمين في المدينة وعلى قيام وحدة سياسية جديدة هناك.

كان غياب وجود سلطة سياسية مركزية في المدينة ينعكس حتى على الحياة الاجتماعية وعلى ساحة الدفاع أيضاً. فعدم وجود دفاع مشترك في المدينة أدى إلى قيام كل قبيلة ببناء سور دفاعي قويّ لها. ويذكر ابن النجّار وجود ١٣ سوراً للعرَب. كانت هذه الأسوار بمثابة «غيتُو» يفصل كل قبيلة أو مجموعة من القبائل عن القبائل الأخرى. وكانت مصاريف الدفاع المشترك –وهو أمر خاص باليهود– تُدفع من قبل صندوق شعبي. أما القبائل العربية فقد أسّست ما يشبه صندوق الضمان الاجتماعي لدفع مبالغ الديات. ومع أن اليهود كانوا يملكون التوراة إلا أنه لم يكن هناك قانون مكتوب ينظّم العلاقات بين الأفراد وبين القبائل. وكانت الخلافات والمنازعات تُحَلّ في الغالب حسَب الأعراف السائدة ومن قبل حكام. ولكن نظراً لعدم وجود قوانين واضحة فإن الأطراف القوية لم تكن تأبه لقرارات هؤلاء الحكام مما كان يعني دوام الظلم وضياع الحقوق.

كانت نسبة من يقرأون ويكتبون في المدينة نسبة ضئيلة، وكان اليهود يتكلمون العربية، ويكتبون العربية بالحروف العبرية. وكانوا يؤدون عباداتهم ويعلّمون أبناءهم في «بيت المِدْراس» أو «المدارس». بينما كان العرب محرومين حتى من هذه الفرصة الضئيلة. ونظراً لأنهم كانوا لا يملكون كتاباً (أي كانوا أمّيين) كانوا يشعرون بالضآلة والنقص أمام اليهود.

لم تكن المجموعتان العرقيتان (أي العرب واليهود) مجموعتين متجانستين. والشيء الذي يجلب الانتباه أنه بينما كانت هناك معارك بين العرب واليهود، كانت هناك معارك بين القبائل العربية ومعارك بين القبائل اليهودية كذلك. فحسَب المعلومات التي أوردها ابن هشام فإن القسم الأكبر من قبيلة بني قَينُقاع اليهودية كانوا حلفاء لقبيلة الخَزرَج العربية. وكان القسم الأكبر من قبيلتي بني النضِير وبني قرَيظة حلفاء لقبيلة بني أوس العربية. ولكن المعارك الكبيرة كانت تجري بين قبيلتَي الأوس والخزرج. ويذكر المؤرخون أن حرب «بُعاث» الطاحنة بين الأوس والخزرج استمرت ١٢٠ عاماً.

والحقيقة أن هذه الحروب الضروس بين هاتين القبيلتين –اللّتَين كانتا تنحدران من قبيلة واحدة هي قبيلة بني قَيل– دفعت المدينة وما حواليها إلى الفوضى والاضطراب، وأخلّت بالأمن وأثارت نوعاً من اليأس والقنوط. وقبل أيام من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة فكّر أهل المدينة في تنصيب عبد الله بن أُبيّ ملكاً عليهم لكي يتم تأسيس سلطة مركزية تضع حدّاً لهذه الصدامات والنـــزاعات.

ونظراً لكون أهل المدينة على اتصال وثيق مع بيزنطة ومع فارس فقد رأَوا أن النظام الملكي يمكن أن يؤسس النظام ويُنهي الفوضى. ولكن سجايا عبد الله بن أبيّ كانت ضعيفة، فقد كان شخصاً ضيق الأفق حريصاً على مصالحه، وكانت الخلافات العميقة التي تعصف بالمدينة تتجاوز طاقته كثيراً. وقد سهّل غيابُ السلطة السياسية المركزية في المدينة قدومَ رسول الله ﷺ إليها. فحسَب رأي السيدة عائشة رضي الله عنها فإن الجو المضطرب للمدينة ساعد على تقوية مكانة الرسول ﷺ في المدينة.

الأطراف الموقعة على هذه الوثيقة

كان من أوائل ما عمله الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة هو إيواء المهاجرين الجدد الذين قدموا إلى المدينة، واتخاذ التدابير اللازمة لتأمين الحاجات المعيشية الضرورية لهم ولعوائلهم. لذا قام بتأسيس علاقات التعاون الاجتماعية والاقتصادية بين مسلمي المدينة «الأنصار» ومسلمي مكة «المهاجرين»، وأطلق اسم «المؤاخاة» على هذه العلاقة. وقد اشترك في عملية المؤاخاة هذه ٤٥ أنصارياً و ٤٥ مهاجراً، أي بلغ المجموع ٩٠ شخصاً. وتشير المصادر التاريخية إلى أنه لم يبق هناك مهاجر لم يشترك في هذه المؤاخاة.

بعد هـــذه التطورات التي حدثت بعد الهجرة ظهرت ثلاثة قطاعات اجتماعية في المدينة: المســلمون، اليهود، والعرب المشركون. كان المسلمون يتألفون من المهاجرين المكّيّين ومن أهل المدينة من الأنصار من قبيلتَي الأوس والخزرج. كانت مثل هذه البنية الاجتماعية شيئاً غريباً في شبه الجزيرة العربية وغير معروف في حياة العرب وتقاليدهم. لأن التقاليد القبلية العربية كانت قائمة على رابطة الدم والقرابة، بينما اجتمع في المدينة أناس

من أديان ومن عناصر وقوميات وأماكن جغرافية مختلفة مشكّلين قطاعاً اجتماعياً مختلفاً. والدليل على هذا أن المادة الثانية من وثيقة المدينة كانت تشير إلى جماعة سياسية قائمة على أساس الدين، وهي أمة واحدة دون سائر الناس.

ولا حاجة بنا إلى ذكر أن المدينة لم تكن مؤلَّفة من المسلمين فقط، فقد كان فيها اليهود الذين استقروا فيها منذ زمن بعيد، وكان هنالك العرب الذين لم يدخلوا في الإسلام. لذا كان أمام رسول الله ﷺ مهمة عاجلة هي التأليف بين هذه القطاعات الاجتماعية وتأمين عَيشها معاً دون مشاكل.

حل المعضلة

بدأ الرسول ﷺ -لحل المعضلة- بفحص البنية الاجتماعية والدينية والسكانية للمدينة أولاً. فقام بإحصاء سكّاني في المدينة، وهو أمر كان غريباً تماماً بالنسبة للتقاليد والأعراف التي كانت سائدة آنذاك. وقد تبين نتيجة الإحصاء أن عدد سكّان المدينة يبلغ ١٠ آلاف شخص، منهم ١٥٠٠ مسلم و ٤٠٠٠ يهودي و ٤٥٠٠ من المشركين العرب.

ثم خطا رسولنا ﷺ خطوة ثانية فقام بترسيم الحدود للمدينة المنورة ووضع علامات في زوايا الجهات الأربع لها، وهكذا عَيَّنَ حدود «دولة المدينة». وحسب المادة ٣٩ من الوثيقة فإن المنطقة المحصورة في ضمن هذه الحدود والواقعة في داخل وادي يثرب (الجوف) أصبحت منطقة الحرم.

كان الرسول ﷺ يحاول من جهةٍ إسكان المهاجرين وتأمين تكيّفهم مع بيئتهم الجديدة، ويحاول من جهة أخرى طَمأنة اليهود والمشركين العرب، وكان يقول لهم بأن غايته هي تأمين جوّ آمن لمنتسبي الدين الجديد. والحقيقة أن المسلمين قد تبنّوا مضمون الوحي الذي نزل أثناء وجودهم في مكة، والذي كان يقول ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦). ولكن قريشًا رفضت هذا المشروع المتضمن للسماح بتعدد الأديان، وحاولت منع الرسول ﷺ عن القيام بتبليغ دينه، واختارت فتنة الراغبين في الدخول إلى الإسلام عن دينهم بالضغوط وفنون التعذيب.

ومع أنه لا يصح سَوق الفرَضيات، إلاّ أنه يمكن القول بأن مشركي مكة لو سمحوا للمسلمين بحرية الرأي والعقيدة وبممارسة دينهم وبالحرية في التبليغ، لما تمت الهجرة ولظلّ المسلمون يعيشون مع غيرهم في مكة. إذ لم يكن للرسول ﷺ طوال العهد المكي سوى طلبَين: أحدهما حرية القيام بتبليغ الدين، والآخر حرية ممارسة مبادئ الدين في جو آمن دون أي مضايقات. وهاتان الحريتان المطلوبتان هما من مطالب البشر في الماضي والحاضر والمستقبل إلى يوم القيامة.

فلم تكن هناك حاجة في المدينة لكي يغير الرسول ﷺ إستراتيجيته التي كان يتّبعها في مكة؛ فإن حياته في المدينة كانت شرحاً وإيضاحاً واستمرارًا من الناحية الاجتماعية والحقوقية والمؤسساتية للوحي الذي نزل عليه في مكة. أي تنفيذ مشروع اجتماعي جماعي مستند على أساس من الحرية حيث تستطيع الجماعات التي تملك حكماً ذاتياً أن تعيش معاً في مجتمع عام، أو أن تضع نظاما سياسيا ييسر للجميع العيش معاً بسلام. لا شك أن التبليغ (أي الدعوة إلى الدين الجديد) كان سيستمر ولكن بشرط عدم إكراه أي شخص على اعتناق دين معين، وكذلك رفع جميع العوائق أمام من يرغب في تبديل دينه.

وعقب الوصول إلى المدينة عقد مجلس كبير ضم الأنصار ونقباء المهاجرين حيث تم فيه في الأرجح مداولة الأحكام والأسس القانونية لعملية التآخي التي ذكرناها سابقاً. وقد تم تعيين المواد ١-٢٣ من هذه الوثيقة وتدوينها في هذا الاجتماع، أي تم تسجيل شكل العلاقات الاجتماعية والقانونية للجماعة الإسلامية وتثبيتها في مواد قانونية مكتوبة.

بعد ذلك قام الرسول ﷺ بمشاورات عديدة، ليس مع رؤساء قبائل المسلمين فحسب بل أيضاً مع زعماء وممثلي الجماعات الأخرى من غير المسلمين. كان الاجتماع الأول مع المسلمين في بيت أنس بن مالك ﷺ ثم مع زعماء المسلمين واليهود في بيت بنت الحارث حيث تم التفاهم على المبادئ الأساسية لـ«دولة المدينة» الجديدة. وفي رأي العالم المحقق محمد حميد الله فإن هذا «الدستور الجديد للدولة» كان من زاوية عقدًا اجتماعيًا بين الجماعات المنضوية تحت مظلة هذه الدولة الجديدة، وهذا الدستور هو وثيقة المدينة الموجودة بين أيدينا حالياً.

لا شك أن كِلا الاجتماعَين جريا في جو من الحوار الحُر، فقد طرَح ممثلو الجماعات المختلفة طلباتهم وأولوياتهم، واستمعوا إلى آراء الآخرين وتحادثوا فيما بينهم وحددوا النقاط الأساسية والإطار المشترك ثم سُجِّلَ مَتن هذا الإطار.

أحكام الوثيقة

يرى الأستاذ محمد حميد الله بأنه إلى جانب كون هذه الوثيقة دستور الدولة الإسلامية الأولى، فإنها كانت في الوقت نفسه أول دستور مكتوب في العالم آنذاك. ويتّضح من المعلومات الواصلة إلينا عن طريق أنس ﷺ وعن طريق آخرين بأن هذه الوثيقة ظهرت كإجماع واتفاق جميع الأطراف عليها في نهاية هذه المحادثات، وهذا هو الصحيح؛ لأنه لم يكن من الممكن قيام الرسول ﷺ الذي اضطر إلى الهجرة من مكة ليلاً وبشكل سرّي بإجبار الآخرين على كتابة وثيقةٍ تلبّي رغباته فقط، علماً بأن أتباعه لم يكونوا يتجاوزون ١٥٪

من سكان المدينة؛ أي إن إرغام الأطراف الأخرى -التي كانت أنذاك أكثر عدداً وعُدّة من أتباعه- على قبول الوثيقة كان مستحيلاً.

ومن العوامل الأخرى التي أدّت إلى قبول هذه الوثيقة الجماعية في ختام المباحثات التي أجراها النبي ﷺ مع الأطراف الأخرى والتي استندت إلى أخذ إجماع كل الأطراف، هو إيقاف الفوضى وغياب الأمن الذي تردى فيه أهل المدينة بعد ١٢٠ عاماً من القتال والبغضاء، ولم تستطع المدينة أن تصل بنفسها إلى حلٍّ واستقرار وسلام اجتماعي وسياسي مع القوى الاجتماعية فيها. فكأنها كانت تنتظر منقذاً لها. وبينما كانت هذه المدينة تتقهقَر باستمرار إلى الوراء اقتصاديّاً بسبب الحروب المستمرة، كانت هناك في الأفق نذر حرب جديدة. وفي هذا الوقت الحرِج ظهَر شخص أَجنبي عنها أشار إلى طرُق إمكانية العيش معاً بأمن مع كافة المجموعات الموجودة الأخرى، ودعا الجميع إلى الارتباط بالأسس القانونية التي تعطي لكل ذي حقّ حقَّه.

والنقطة المهمة الثانية هي قبول كل طرفٍ وجودَ الأطراف الأخرى كظاهرة وعدم القيام بأي ضغط عليها، وقبولها كما هي، وكما تقوم بتعريف نفسها، واحترام حق الحياة لها، واحترام أفكارها، في ظل القانون وتحت حمايته.

ويجب ألاّ ننسى أن اليهود -الذين كانوا طرفاً في هذه الوثيقة- لم يكونوا يُعدون «ذمّيّين» ولم يكونوا إذن يعطون الجزية لأي حكم أو سلطة أو دولة خارجهم. لأن آية الجزية نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهذا يبيّن بأن الأطراف المشاركة في الوثيقة لم تكن تُعطي الجزية حتى تلك السنة، أي لم تكن تُعَدُّ من الذميين.

بجانب هذا، فقد اشترك العرب المشركون في هذه الوثيقة باعتبارهم -حسب العادات والأعراف العربية- من «المَوَالِي». فحسب هذه الأعراف إن دخلت قبيلة أو عشيرة أو جماعة في معاهدة فإن حلفاءها السابقين (أي مَواليها) يكونون طرفاً غير مباشر في تلك المعاهدة. ونحن نعلم من سورة «براءة» أن المشركين العرب بقوا مدة طويلة يعيشون في المدينة. وكانت سورة «براءة» إنذاراً بقطع جميع العلاقات السياسية وإنذاراً بالحرب. ومع ذلك فإن المشركين العرب المعاهَدين كانوا مُستَثنَين من الحرب لا يمسهم أحد بسوء ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤).

المبادئ الأساسية في الوثيقة

المبدأ الأول: يجب على كل مشروع مثالي يريد تحقيق الحق والعدل واحترام القانون والحقوق ويهدف إلى تحقيق السلام والاستقرار بين الناس أن يظهر بين الجماعات المختلفة (من الناحية الدينية أو السياسية أو الفلسفية...الخ) على أساس من معاهدة وعقد. ويجب حضور جميع الأطراف الاجتماعية أو مَن يمثّلونها في أثناء تهيئة ووضع هذه المعاهدة أو العقد، وأن يتم هذا في جوّ من الحرية والحوار والمباحثة والمذاكرة بين هذه الأطراف.

ونظراً لكون هذه الأطراف جماعات غير متجانسة كان من الضروري أن تكون كل مادة من مواد الوثيقة تحمل طابع المشاركة وطابع الالتقاء بين هذه الأطراف، وأن تُسجَّل نتيجة التصويت عليها. وكل مادة متَّفَق عليها تشكل حكماً من أحكام الوثيقة، وكل مادة تكون موضع خلاف بين الأطراف تُترك لهذه الأطراف. فالفقرات المُجمَع عليها تدخل في ساحة المعاهدة، والفقرات المختلف عليها تدخل في مجال الحرية الذاتية (أو الحكم الذاتي). وهذا دليل على الاختلاف الثريّ الموجود ضمن الوحدة، أي هو «الجماعية» الصحيحة.

المبدأ الثاني: وهو اختيار مبدأ «المشاركة» بدلاً من مبدأ «التحكّم»، لأنه في ظل الحكم السياسي الدكتاتوري لا يتم قبول التنوع والاختلاف، بينما نرى أن وثيقة المدينة تذكر أسماء القبائل المسلمة وأسماء القبائل اليهودية قبيلة تلو قبيلة، كما تشير إلى المشركين في مادة أخرى (المادة: ٢٠/ب). وكلمة «المولى» الواردة في الوثيقة تشير إلى القبائل والعشائر والمجموعات التي دخلت في عهد أو اتفاق مع إحدى القبائل دون وجود أي قرابة دم معها. وهذا يعني أن كل طرف من الأطراف الاجتماعية التي وقّعت على هذه الوثيقة كان يمثل أيضاً القبائل والمجموعات المرتبطة بها، وكان يعطي نفس الحقوق والمسؤوليات لها. إلا أن المادة رقم «٢٠/ب» كانت تشير إلى أحكام خاصة بالنسبة للمشركين العرب، وكانت هذه الأحكام تؤيَّد بالمادة رقم «٤٣» كذلك. وكانت الغاية من هذه الأحكام منع مشركي المدينة من أي تعاون مع مشركي مكة سياسياً كان أم عسكرياً. هذا علماً بأن مشركي المدينة لم يكونوا يحملون أيّ رغبة في التعاون مع مشركي مكة، لأنهم كانوا يخافون من أن يجلب هذا التعاون مشاكل لهم. ولكنهم كانوا يرغبون في التمتع داخل دولة المدينة (الموضَّحة في المادة: رقم ٣٩) بكل الحقوق والحريات مع الآخرين. وقد قامت الوثيقة بتأمين وضمان هذه الحقوق والحريات لهم أيضاً وعلى أساس من القانون. ونحن نعلم بأن مشركي المدينة -وهم طرف في وثيقة المدينة- استمروا في العيش في المدينة حتى بعد معركتَي بدر وأُحد اللتَين جرَتا مع مشركي مكة، ولم يحدث أيّ مشاكل بينهم وبين المسلمين.

ونستنتج مما تقدم أن كل مجموعة دينية وعرقية كانت تملك حرية ثقافية وحقوقية؛ أي إن موقف كل طرف من ناحية

الدين وتشريع القوانين المتعلقة بالمجتمع والمحاكمة والثقافة والتجارة والفن والعبادة وتنظيم الحياة اليومية...الخ، مواقف هذه المجموعات والطوائف المختلفة ستبقى كما هي وكما ترغب وتستطيع التعبير عن نفسها في هذه الساحات بحرّية من خلال المقاييس القانونية والثقافية. والمادة التي كانت تَضمن هذه الحقوق هي المادة رقم «٢٥».

أما المادة رقم «٤٢» فتذكر بأنه في حالة ظهور أي خلاف يخشى من عواقبه يتم الرجوع فيه إلى الرسول ﷺ. والظاهر من الآيات القرآنية ومن أحاديث الرسول ﷺ ومن مصادر السيرة النبوية فإن هذه المادة قد اقتُرحتْ من قبل اليهود والمشركين. لأن الوضع الفوضوي في المدينة كان قد هز الثقة والاطمئنان بين القبائل. لذا فقد اتفق جميع الأطراف على رفع المشاكل التي لا يستطيعون حلَّها إلى مرجع أعلى يقوم بحلّها. وكان هذا المرجع هو رسول الله ﷺ الذي كان مرجعاً محايداً أتى من خارج المدينة. وكان القرآن الكريم يذكر له أن بوُسعه النظر في دعاوى القوم إن أراد ذلك ويعطيه هذه الصلاحية ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (المائدة: ٤٢). وعلى إثر هذه الآية كان الرسول ﷺ يخيّر مَن يراجعه منهم وكان يسألهم ما إذا كانوا يريدون أن يحكم بينهم بالقرآن أم بالتوراة؛ أي إن الرسول ﷺ كان في موضع «الحَكَم» وليس في موضع «الحاكِم». ويجب أن نضيف هنا أن النظر في قضايا غير المسلمين أو إعطاء حق حل مشاكلهم ودعاويهم -لا سيما الدعاوى المدَنية منها- في محاكمهم وضمن قوانينهم أصبح منذ ذلك اليوم حقّاً من حقوق الذميين، واستمر هذا الأمر حتى نهاية الدولة العثمانية.

أما المادة «٢٣» فكانت تشير إلى أن الرسول ﷺ هو الحاكم المطلق في الأمور الدينية للمسلمين، ولكنه يستشير الآخرين في المسائل الإدارية. وكان هذا أمراً طبيعيّاً، لأن المسلمين كانوا قد بايعوه ورضوا بالارتباط به والانقياد له منذ البداية. وهو أمر مناسب لأسس الدين الإسلامي الذي لا يفرق بين العبادة والحقوق. وهذه المادة -كمَبدَأ أساسيٍّ- تؤكّد أن الدين الإسلامي يُلزم المسلمين فقط.

والذين يتّهمون الإسلام ويَصمونه بالدكتاتورية لا يعرفون هذه الحقيقة تمام المعرفة. لأن الناس إن كانوا أحراراً في اختيار دينهم ولهم مثل هذا الحق فإن هذا يؤدي -ويعني أيضاً- أن الأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية والقوانين المرتبطة بها يجب أن تكون متلائمة مع الدين ومع الأفكار الدينية. وفي هذا الوضع فإن الدين الإسلامي والقوانين الإسلامية تلزم المسلمين فقط، ولا تَشمل الآخرين، ولا يُطلب من غير المسلمين التصرف حسب هذه القوانين. وهذا شرط -وكذلك ضمان- لحرية الدين والوجدان وحرية التعبير والسماح للآخرين بالعيش حسب أديانهم. وقد حقق الرسول ﷺ هذين الشرطَين قبل ١٤٠٠ سنة وتم تسجيلهما في إطار القوانين والحقوق، بينما لم يتحقق هذا حتى الآن في عصرنا الحالي.

كانت هذه الوثيقة عالمية وموضوعية وفَوق الطوائف الاجتماعية، أي لم يكن بوسع المسلمين واليهود والمشركين الخروج خارج نطاقها العام.

كان هذا وحده انقلاباً وثورة كبيرة. ففي هذه البنية القانونية الجديدة التي لا تتم فيها حماية المجرم من أي طائفة أو جماعة تتجلى العدالة وتسود الطمأنينة وتظهر وتُصبح مسؤولية اجتماعية مشتركة بين جميع الأطراف (المادة: ١٢ و ١٣ و ٢١). ويعني هذا أن الجرائم والعقوبات أصبحت فردية، وانمحى مفهوم الجرائم والعقوبات الجماعية. ولكن قيام قبيلة الجاني بدفع دية المقتول لم يكن يُخلّ في ظروف وجو ذلك العهد بهذا الأساس القانوني. كما كانت الفقرة «١٢/ب» تسمح للأشخاص بالقيام -خارج هذه الوثيقة- بعقد اتفاقات أخرى مع موالي الأشخاص الآخرين.

إن الناحية التي تهمنا في هذه الوثيقة أنها وثيقة مكتوبة في عام ٦٢٢م، نتيجةَ مباحثات ومشاورات بين قطاعات دينية واجتماعية مختلفة، وأنها وضعت للتطبيق العملي.

هذا ويمكننا أن نستخرج كليات أساسية من أحكام هذه الوثيقة إن قمنا بعملية تجريد وتعميم لها، ومن ثم يمكن لهذه الكليات الأساسية أن تكون مصدر إلهام في حل كثير من المشاكل اليوم. وهناك العديد من الأحاديث والآيات والعديد من التجارب الذاتية والمحلية في تاريخ المسلمين، وكذلك العديد من أحكام الشريعة الإسلامية التي تؤيد المشروع الكبير الذي استهدفته هذه الوثيقة. وإن التجارب التي حفَل بها التاريخ الإسلامي في هذا الموضوع كانت انعكاساً لروح هذه الوثيقة بخطوطها العامة وشرحاً وتطبيقاً لها. إننا ونحن نعيش في هذا العصر مشاكل عدّة مثل النـــزاع العربي الإسرائيلي والنـــزاعات الإقليمية ودعوى صراع الحضارات والعمليات الإرهابية نرى أننا في حاجة ماسّة إلى مشاريع تتخذ من التعاقد والحوار والمباحثات أساساً لها، أي نحتاج إلى مشاريع تؤمن بالتعددية وتسعى لها.

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

المصادر:

(١) صحيح البخاري.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد.
(٤) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله.
(5) Wellhausen, Skizzen und vorarberten.



«الحق أن النبي [ﷺ] لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحي إليه في غار حراء؛ فقضى حياة يعجب الإنسان بها. والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا.. فقد نبتت في رمال الحجاز الجديبة حبة سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي.»

إميل درمنغم مستشرق فرنسي، عن كتابه «حياة محمد»



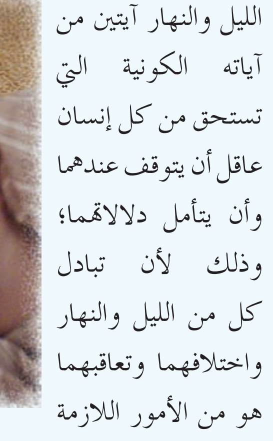
وَجَعَلْنَا نومَكُمْ سُبَاتاً

أ.د. زغلول النجّار *

مدلولات النوم

جاءت لفظة «النوم» بمشتقاتها في القرآن الكريم تسع مرات.[1] قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤٧). وجاء التعبير عن النوم بلفظ «النعاس» و «نعاساً» في موضعين من كتاب الله العزيز.[2] يقول تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ (الأنفال: ١١). وكذلك جاء التعبير عن النوم بلفظة «السكن» ومشتقاتها سبع مرات.[3] وبتعبير «السبات» مرتين.[4] يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ: ٩-١١) وجاء التعبير عن النوم بلفظة «بياتا» في ثلاثة مواضع.[5]

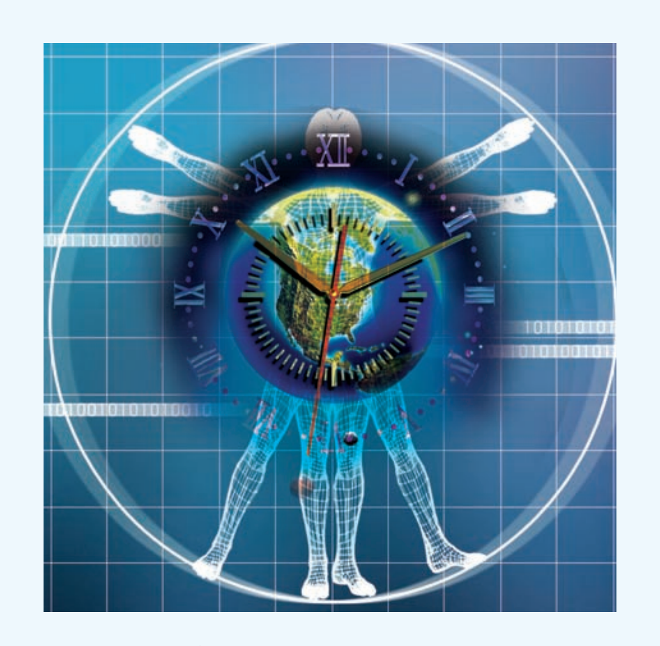
كذلك ذكر الليل في القرآن الكريم في (٩٢) موضعا، وذكر النهار في (٥٧) موضعا، بالإضافة إلى ورود لفظتَي «الصبح» و «الإصباح» ومشتقاتهما بمدلول النهار في مواضع عديدة من كتاب الله (٤١) مرة؛ وكذلك لفظة «اليوم» ومشتقاتها (وجاءت في ٣٦٥ موضعا) لتدل في بعض هذه المواضع على النهار؛ ولفظة «الفلق» ومشتقاتها والتي جاءت كذلك بمدلول النهار في موضعين.[6] قال تعالى ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام: ٩٦). وفي هذه الإشارات القرآنية يذكرنا ربنا تبارك وتعالى بأنة قد جعل الليل والنهار آيتين من آياته الكونية التي تستحق من كل إنسان عاقل أن يتوقف عندهما وأن يتأمل دلالاتهما؛ وذلك لأن تبادل كل من الليل والنهار واختلافهما وتعاقبهما هو من الأمور اللازمة لاستقامة الحياة على الأرض، لأنه بدون ذلك التبادل ما كان ممكنا للحياة أن تقوم أو أن تنتظم في مسيراتها المختلفة؛ وذلك لعدم انتظام توزيع الطاقة على سطح الأرض، ولتلاشى الإحساس بمرور الزمن وتتابع الأحداث.



أهمّية تعاقب الليل والنهار

فبهذا التبادل بين الإظلام والنور يتم التحكم في درجات الحرارة والرطوبة وكمّيات الضوء اللازمة للحياة الأرضية في مختلف بيئاتها؛ كما يتم التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية من مثل التنفس، النّتح، التمثيل الضوئي، الأَيْض، كما يتم ضبط التركيب الكيميائي للغلاف الغازيّ المحيط بالأرض، وتتم دورة الماء بين الأرض والسماء، ويتم ضبط حركات كل





من الرياح والسحاب ونزول المطر بإذن الله تعالى وغير ذلك من العمليات والظواهر التي بدونها لا يمكن للأرض أن تكون صالحة لاستقبال الحياة.

ونحن نعلم أن كل صور الحياة الأرضية لا تتحمل مواصلة العمل دون أخذ قسط كامل من الراحة وإلا هلكت، وينطبق ذلك على كل من الإنسان والحيوان والنبات.

العقل البشري والنوم

فالإنسان يحتاج إلى أن يسكن بالليل، وإلى أن يخلد فيه إلى شيء من الاسترخاء والراحة والعبادة والنوم حتى يستعيد نشاطه البدني والذهني والروحي والنفسي، ويستجمع قواه للعمل في النهار التالي وما يتطلبه ذلك من حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض. وذلك لتعويض ما فقده الجسم من خلايا أثناء يقظته وترميم ما تلف منها وتجديد ما يحتاج الجسم إلى تجديده. وقد ثبت بالتجربة أن مخ الإنسان هو أكثر أجزاء جسده حاجة إلى النوم. ولذلك يمنّ علينا ربنا تبارك وتعالى بجَعْل الليل للراحة والسكن، وجعل النهار للكدح والعمل فيقول عز من قائل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: ٧٢-٧٤).

ومعنى ذلك أن الله تعالى قد جعل للإنسان دورةً يومية مع تعاقب الليل والنهار، يَبدؤها بالتبكير لصلاة الفجر، والقيلولة في الظهيرة، والاستيقاظ قبل صلاة العصر، وعدم السهر بعد أداء صلاة العشاء إلا لضرورة، وذلك لتوفير إمكانية القيام في الثلث الأخير من الليل لأداء سنة التهجد. ولذلك أخرج الإمام أحمد في مسنده قول الرسول ﷺ: «لا سَمَر بعد الصلاة -يعني العشاء الآخرة- إلا لأحد رجلين: مصلٍّ أو مسافر». ولا يرخَّص في ذلك إلا لطلب العلم أو أداء ما لا بد منه من أعمال. كذلك قولَه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: «أغلقوا الأبواب بالليل، وأطفئوا السُّرُج، وأوكوا (أي: أَحكموا أربطة) الأسقية، وخمروا (أي غطّوا) الطعام والشراب ولو أن تعرُضُوا عليه شيئًا».

وقد ثبت بالتجربة العمَلية وبالتحاليل المختبرية أنّ أصحّ نوم الإنسان هو في الساعات الأولى من الليل (ثُلثَي الليل الأوّلان)، وأنّ نشاط جسم الإنسان يتحرك من حدّه الأدنى إلى حدّه الأقصى ثم يتراجع ليصل إلى الحد الأدنى في دورات منتظمة وفق خطة يومية ثابتة تحددها العوامل الوراثية وتضبطها أو تشوّهها الممارسات الفردية.

ففي أثناء النهار ينشط في جسم الإنسان كل من أجهزته التالية: الجهاز العصَبي، الدوري، التنفّسي؛ كما يزداد إفراز كل من الهرمونات التي توفر الطاقة للجسم مثل «الكورتيزون» والهرمونات المحفّزه لإفرازه، وتزداد حاجة الجسم إلى الكربوهيدرات وفي مقدمتها السكر، وينشط تحليل كل من البروتينات والدهون لتعطي طاقة الحركة والنشاط للجسم.

بينما في الليل يزداد إفراز الهرمونات الداعية للجسم إلى الراحة والاسترخاء مثل «الميلاتونين» و «البورستاجلاندين»، كما تنشط دفاعات الجسم الذاتية من مثل الجهاز العصبي غير الوديّ، والجهاز الليمفاوي، وكرات الدم البيضاء، وغيرها من أجهزة المَناعة في الجسم؛ بينما يقل إفراز هرمون «الكورتيزون» و «الأدرينالين»، و «الكورتزول» وكلها من الإفرازات المنشطة للجسم.



وينظِّم نشاطَ جسم الإنسان بالنهار ويثبِّطه بالليل ما يُعرف باسم «الساعة الحيَوية»، وهي عبارة عن مركز في المخّ فيما يُعرف باسم «النّواة فوق التصالبة» وينتشر منها إلى العديد من خلايا الجسم وأنسجته. ويتحكم في هذه الساعة أربع من حاملات الصفات الوراثية (المورثات أو الجينات) التي تتأثر بدورة الظلام والنور والضوضاء والسكون، وبذلك تتحكم في ساعات اليقَظة والمنام.

الساعة الحيوية وأوقات الصلاة

وعلى ذلك فإن النوم كظاهرة حيوية أمر لازم للإنسان؛ فيه يفقد جزءً من إدراكه فتنقطع حواسّه عما يحيط به وتظل أجهزته الجسدية في العمل، فيأخذ كلٌّ من عَقْلة وبدَنه قسطا من الراحة ليعود بعد يقظته حيويا نشيطا قادرا على مواجهة مسئولياته؛ وعلى ذلك فإن النوم نعمة من نعم الله العديدة على الإنسان، كما أن الانتظام في أداء الصلوات الإسلامية على وقتها يضبط الساعة الحيوية في جسم الإنسان ضبطًا دقيقا يتوافق مع ما فطَرها الله تعالى عليه.

فاليقظة مبكرا لأداء صلاة الفجر يتوافق مع الدروة في إفراز هرمونات النشاط في جسم الإنسان. والقيلولة بعد أداء صلاة الظهر تزيل التوتّرات الناتجة عن النشاط الصباحي وما يصاحبه من إفرازات للهرمونات المعينة عليه، وتعطي لجسم الإنسان الفرصة لأخذ قسط من الراحة. والاستيقاظ لأداة صلاة العصر يتوافق مع قمّة إفراز الأدرينالين المعين على البعد عن التوتر. والاستعداد لصلاة المغرب إيذانا ببدء ليل جديد يصاحبه زيادة واضحة في إفراز الهرمونات التي تعين على الاسترخاء من مثل هرمون «الميلاتونين».

وختام النشاط بأداء صلاة العشاء والاستعداد للخلود إلى النوم في أكثر ساعات الليل مواءمة لتلقي جسم الإنسان قسطه الكافي من الراحة في ثلثي الليل الأولين، ليقوم في ثلثه الأخير لأداء سنة التهجد في أبرك ساعات الليل، ويستعد لأداء صلاة الفجر مع أول خيوط النهار الجديد، ومع بدء دورة جديدة للساعة الحيوية في داخل الجسد في وقتها المضبوط حسب فطرة الخالق جل جلاله لها.

علاقة النوم بالموت

يقارن القرآن الكريم النوم بالموت ويعتبره موتةً صُغرى تذكر الإنسان بالموتة الكبرى التي هي حتما قادمة في موعد لا يعلمه إلا الله تعالى، وذلك لأنه في كلٍ من الحالتين تغادر الروح الجسد



مغادرة مؤقتة في حالة النوم ومغادرة مستمرة إلى يوم البعث في حالة الموت. وقد أثبت بروفسور «آرثر أليسن» رئيس قسم الهندسة الكهربائية والإليكترونية بجامعة لندن في بحثه المقدم إلى مؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي عقد بالقاهرة سنة ١٩٨٥م أن هناك قدرا من الطاقة يغادر جسد الميت ولا يعود، بينما يغادر جسم النائم ويعود إليه عند استيقاظة؛ وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢).

من آيات السُّنَّة في النوم

يسنّ النوم على الجانب الأيمن متّجها إلى القبلة؛ وقد أثبتت الدراسات الطبية أن هذا هوأ وضع لنوم الإنسان لتحاشي ضغط الأحشاء على القلب وعلى كل من الأوردة والشرايين الرئيسية في جسمه. وقد ذكر ربنا تبارك وتعالى في سورة الكهف في آية ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ (الكهف: ١٨) أن أصحاب الكهف الذين ناموا لمدة ٣٠٠ سنة شمسية (٣٠٩ سنة قمَرية) كانوا في أمسّ الحاجة إلى أن يقلبوا ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يصابوا بما يعرف باسم «التقرّحات السريرية» والتي تصيب المرضى الذين لا يستطيعون النهوض من السرير فتتقرح جنوبهم والله تعالى أعلى وأعلم.

(*) أستاذ علم الأرض – مصر.

(١) البقرة: ٢٥٥؛ الأعراف: ٩٧؛ الأنفال: ٤٣؛ الفرقان: ٤٧؛ الروم: ٢٣؛ الصافات: ١٠٢؛ الزمر: ٤٢؛ القلم: ١٩؛ والنبأ: ٩.

(٢) الأنفال: ١١؛ وآل عمران: ١٥٤.

(٣) الأنعام: ١٣،٩٦؛ يونس: ٦٧؛ القصص: ٧٢،٧٣؛ غافر: ٦١؛ والنمل: ٨٦.

(٤) الفرقان: ٤٧؛ والنبأ: ٩.

(٥) الأعراف: ٤، ٩٧؛ ويونس: ٥٠.

(٦) الأنعام: ٩٦؛ والفلق: ١.

شعر

فَلْتَهْدِلِ الحمائمُ على شُرُفَاتِ الرُّوح

عارف نهاد آسيا *

كانت سجّادتك الرمال...
وأصواتُ الأذان تَعلو،
من العصور.. ومن الديار،
وتلتقي في السماوات.
مؤمنةً كانت المساجد، مؤمنة المنابر!
والتكبير يَفيض وينضح من القباب...
قِبابٌ تملؤها دعواتُ آمين.
وفي الليالي المباركة...
لم تكن دعواتنا ترجع خائبة،
في ليال تتوهّج أنواراً.
كلُّ من جاء إلى بابك، من قريب أو بعيد،
مؤمنا عاد، يا محمد...
لمّا كانت البسملة بركة خبزنا،
وأُمّتك عزيزةً في الدنيا والمعاد، يا محمد...
فلتَحُطّ الحمائمُ على شرفات الشبابيك من جديد،
ولتَخْتَلطْ نداءاتُ الذِّكْر: هو.. هو، بدعاء «آمين»
إنها ليلة مباركة، فهلمّوا يا «فواتح»، ويا «يواسين».[١]
الأمهات يذكرنك باكيات، في هذه الأيام؛
يا يتيم الأيتام، يا غريب الغرباء،
كنت للمستضعفين جناحا..
وصاحباً للفقراء،
يا رسولُ.. فأين أنت؟
يا نبي.. أين أنت الآن؟
أيام مضت، ما أحلاها، يا محمد...
ما أحلاها من أزمان!
قبل ميلادك، وَقَع في قلبِ مؤمنين بك الإيمانُ،
حين طغَت الغفلة مثل الصحارى،
بكى يتيمُ «عبدالله»... وأمانةُ «آمنة»،
في حِجْرِ «حَليمة».
وكنتَ لـــ «خديجة» زَهرةً، ولـــ «عائشة» ورداً،
وبُؤبؤَ عين الأمة، ورسولَ السماوات.
بُعثتَ رسولاً، وأَرسَلتَ إلى الأصقاع رسلاً.

سلَّمتَ روحك لله، ومددت يدك للأمة مدّاً.
هاجرت الى المدينة، إذ ضاقت بك أرض مكة؛
وكانت لك مأوى ووطناً ومهداً.
فإلى أين المفرّ والدنيا بنا تضيق، يا محمد؟!
النفاق والكفر والخيانة في الأرض،
في عصرٍ لها مِن ذَهَبٍ!
وتدّعي الألسن والصفحات والسطور:
أنْ مات أبو لهب!
هذا أبو لهبٍ حيّ، يا محمد..
وأبو جهلٍ الجَهولُ، في القارات يجول..
ما أحلى ما سَمعتْ آذانُنا الهائمةُ بالمواليد!
ما أحلى أسماءً حَفظتْها شفاهُنا..
التي تعوّدت على اسمك.. يا نبي!
ثم نَسيتْ خطواتُنا اتباعَ أَثرك في الطريق،
فاليوم إذن سوادُ الأستارِ بالكعبة يليق.
آمالُنا في حربٍ مع المفاخر،
والفخرُ في جبلِ قافٍ، أميرٌ متسلِّط قاهر.
الضمائر خراب... والوجدان تالف.
فهات الحسناتِ قبل الغد، وهات اللطائف؛
لأبناء آدم.
هذه الأسوار التي تراها.. بعضها خيبر، وبعضها طائف.
لم نفتحها، يا محمد، وقد مضت السّنُون...
فلا صدق ولا استقامة... ولا حسنات ولا خير.
وأجمَلُ الأغصان في البساتين، نَسيتْ كيف تثمر.
وفي جوف الآثام، معسلة الحرام.
فَرِحَ مَنْ فرح، كأنه عيد!
فَرِحَ من أفرغ ماء «السماوة»،
وصَبّهُ في «ساوة»
وأتعَبَ خيْله مَنْ أتعب،
بقفزة واحدة من الخنادق.
فَلتبْكِ يثرب، وليبكِ كلُّ «سَلْمَان».[٢]



فلْتَحُطَّ الحمائمُ على شرفات الشبابيك من جديد،
ولْتخْتَلطْ نداءاتُ الذكر: هو .. هو، بدعاء «آمين»
إنها ليلةَ مباركة، فهلموا يا «فواتح» ، ويا «يواسين».

أين يا سَحابُ، رؤوسٌ ظَلَّلْتَها بالظلال؟
وهل تذكر، يا طريق، من ساروا رفاقَ دربٍ،
مع مسافرٍ حبيب..
عبَروا الصخور والجبال،
قافلة تلو قافلة، وركبا تلو ركب،
في صحارى لا تحدّها آفاق..
لا زالت الآثارُ لمن قَدموا،
ولمن يرحلون الطريقُ.
وهذا الغارُ المكبِّر، ليس للعناكب؛
بل للملائكة والأنبياء...
لم يكن العنكبوتُ في الهواء،
ولا في الأرضِ، ولا في الماءِ،
بل في عيونٍ عن الحق عمياء!
وهذا الغورُ السحيق،
أمَلاذ هو للجن.. أم مَوئل للملائك؟
وهذا العشّ، الذي نجهل ما يسكنه،
أحَمامة، أم فاختة، أم هدهد؟
وهل أطَلقَ طيوره نحو المدينة فجراً؟
يا أيتها المتوفاة الراقدة في «أبواء»،
في روضك تفتحت زهرةٌ؛ أجمل ما في الكون زهراً.
لِتَنَمْ ذكراك مدثّرة بدفءِ رمال الصحراء!
لا زالت الصحراء تجيب مَن يصخْ لها سمعاً؛
فيصمت «يا ليل»؛ ويهدر صوتٌ هدرا...
«أُحُدٌ» يقرأ رثاءً، و «بدرٌ» يُنشد شعرا.
وأنتِ، أيّتها المدينة،
اجعلي ملحمةً من إيابِ مائةِ ألفٍ،
في يوم حج؛
يَقْدُمهم محمد، وفي جَنْبه أبو بكر.
في أبي بكر نورٌ، وفي عثمان أنوار.
وعمر يتحدى وجه كل قرشيٍّ جبار.
وعليٌّ يفتح الأبواب..
أمامَ عليّ تنحني الأسوار.

ويستشهد أبطالُ الحق؛ مَن شَهِدوا خيبرَ وأُحُداً وبدراً،
في أيام سعد، يحلو فيه الموت.
تلك أرواحٌ مجنَّحة، لا يَقرّ لها في الأرض قرار.

فلتَحُطَّ الحمائم على شرفات الشبابيك من جديد،
ولْتَخْتَلطْ نداءات الذكر: هو.. هو، بدعاء «آمين»
إنها ليلة مباركة، فهلموا يا «فواتح»، ويا «يواسين».

أَقبِلْ، يا محمد، بالألطاف والخير والطيوب؛
على أبناء آدم،
قبل أن يغادر الوجدان المعطوب؛ إلى الغد.
ولْيفض الإيمان وليَطْفحْ من القلوب،
وليَشْدُ «عطْريٌّ» بالتكبير في أجمل الألحان،
وليتْلُ الأولَياءُ القرآنَ،
ولتنتشر الآياتُ المنقوشةُ بنورِ العيون،
في خط «قايش زادَه عثمان»؛
وليَكْتُبْ مَدْحَكَ «غالب»، ومولِدَكَ «سلَيمان»
وليَعُدْ «سنانٌ» وألف سنان،
في القباب والأعمدة والأطواق.
وليَشُلّ من ينوي الصلاة على جنازة الحقيقة!
الغَيم جناحٌ، والريحُ جناحٌ،
والخَضِرُ جناحٌ، وجبريل جناح،
والأوراق التي تحفظ آياتك أجنحة...
فَلْتُفْتَحْ أبواب السموات،
ولتنفرج طبقات الأستار، سترا فسترا،
ولْتُنْثَر النجومُ فوق الصحارى نثراً،
ولْتَصطَفَّ في دروبك صفًّا صفًّا...
الأيتامُ والأبرياءُ من الذنوب.
ولْتَغْزِلْ رايتَك البنات،
– اللائي يُنشِدْن أغانيَ حزنٍ كلماتها ليالي الصحراء –
بخيوط شعرهن.
وليؤذّن «داودُ».. إن كان قد سكَتَ «بلال»

فلتحُطَّ الحمائمُ على شرفات الشبابيك من جديد،
ولتَختَلطْ نداءات الذكر: هو .. هو، بدعاء «آمين»
إنها ليلةَ مباركة، فهلموا يا «فواتح»، ويا «يواسين».

(*) من كبار شعراء وأدباء تركيا، توفي سنة ١٩٧٥. الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلي.

(١) المقصود سورة الفاتحة و يس. (٢) المقصود هو الصحابي سلمان الفارسي ﷺ.





ماذا تعني بَشَرِيَّة الرسول؟

أ.د. محمد عمارة *



﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾(الإسراء: ٩٣)

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف: ١١٠)

حكمة توكيد القرآن على بشرية الرسول ﷺ

عندما اصطفى الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله ﷺ نبيّاً ورسولاً، وعندما صدع محمد ﷺ بأمر ربه، فدعا الناسَ إلى التوحيد وإلى الإيمان به نبيّاً ورسولاً، لم تكن هناك شبهة على «بشرية» محمد بن عبد الله ﷺ.

فهو قد نشأ يتيماً في الفرع الهاشمي من قبيلة قريش بمكة، وهو قد شب الشباب الطيب المألوف من البشر المستقيمين، ثم هو قد رعى الغنم حينا من الدهر ومارس التجارة حينا آخر كما كان يصنع أقرانه من البشر العاديين، فليس في حياته هذه ما كان يثير أية شبهة حول «بشريته» أو يلقي عليها الشكوك أو الظلال.

ومع كل هذا فلقد وجدنا القرآن الكريم تجتهد آياته البينات لتؤكد على «بشرية» محمد ﷺ ولتَنفيَ أن يكون إلا «بشراً رسولا»، وبشراً يوحَى إليه من السماء بالنبأ العظيم. فلِمَ كان هذا التأكيد والإلحاح على قضية لم تكن محل خلاف ولا شبهة ولا جدال؟

لإدراك السر الذي يجيب على هذا التساؤل لا بد من النظر إلى رسالة محمد بن عبد الله ﷺ في سياق ما تقدمها من رسالات نهض بها الرسل الذين سبقوه على درب اتصال السماء بالبشر لهدايتهم إلى الصراط المستقيم؛ وأيضاً في ضوء كون الرسالة المحمدية هي الرسالة الخاتمة لطور النبوة والرسالة، بما يعنيه ذلك من بلوغ الإنسانية مرحلة «الرشد» التي تأهلت بها، لأنْ تُوكَل إلى «عقلها الراشد» تهتدي به -كلما انحرفت أو ضلت- إلى جادة الرسالة الخاتمة، دونما حاجة إلى رسول جديد.

طبيعة المعجزة القرآنية

ولقد كان هذا الطور الجديد الذي ارتقت إليه الإنسانية، طورُ «الرشد»، هو الذي حدّد الطابع الذي تميزت به «معجزة محمد ﷺ» التي تحدى بها قومَه، فجاءت لذلك:

• معجزة عقلية -رغم أنها «نقل» و «وَحي»- فهي لا تدهش العقل ولا تذهله، وإنما هي تنضجه وترشده، وتجعله مناط التكليف، وتتخذه حكَما وحاكما في فقه مراميها واكتناه أسرار إعجازها، واستخراج البراهين والأحكام مما ضمّت من السور والآيات.

• وهي -لهذا السبب- خالدة خلود الرسالة الخاتمة، لأن تأثيرها دائم الفعل والبرهنة. فهي ليست سفينة نوح عليه السلام، أو ناقة صالح عليه السلام، أو عصا موسى عليه السلام، أو إبراء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص... إلى آخر المعجزات التي «أدهشت العقل»، والتي وقف «إدهاشها» هذا عند حدود «الشهود»!

• ولأنها كانت التعبير عن بلوغ الإنسانية طور «رشدها»، وعن اتساق «طبيعة إعجازها» مع هذا الطور الجديد، وجدناها تولي اهتمامها بكثير من القضايا التي تدعم من عوامل «رشد الإنسانية»، والتي تُزيل بقايا الشبهات والخرافات والمعتقدات الباقية من المراحل السابقة، عندما كانت الانسانية «خِرافًا ضالّة» تحتاج إلى «الوصاية الدائمة» من قِبل الرسل والأنبياء،

ولا تؤمن إلا إذا «اندهش عقلُها». وهي مراحل كانت «عقول» الأكثرية فيها تأبى أن تصدق اتصال السماء بالأرض عن طريق «بشر»، فكانت تنـزع إلى «رسل – ملائكة» نزوعها إلى المعجزات «المدهشة للعقول».

فالذين كذّبوا نوحا عليه السلام قد أنكروا واستنكروا «جدارة البشر أن يكون رسولاً»: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۞ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٣-٢٤). وكذلك صنع قوم «عاد» مع رسولهم هود عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (المؤمنون: ٣٣-٣٤). أما «ثمود» الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فإنهم مع إنكارهم «جدارة البشر بالرسالة»، قد طلبوا «الآية–المعجزة» التي تدهش العقول: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء: ١٤١-١٤٢). لكنهم كذّبـوه: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء: ١٥٣-١٥٤).

فلما جاءهم «الآيـة–المعجزة» «المدهشـة للعقل» (وهي الناقة) اسـتمروا على تكذيبهم وكفرهم، استنكاراً منهم أن يكون بشرا رسولاً: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾ (القمر: ٢٤).

وعلى هـذا الدرب، درب اسـتنكار «جدارة البشر بالرسالة»، سار «أصحاب الأيكة / أهل مَديَن» عندما بعث الله إليهم «شعيباً» عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٧٨). لكنهم كذبوه مستنكرين جدارته كبشر بالرسالة: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٥-١٨٦). ثم طلبوا منه كما طلبت «عـاد» من «صالح» «الآية – المعجزة» التي «تدهش العقل وتذهله»: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٧).

ولقد تحدث المسيح عيسى بن مريم عليه السلام عن حال بني إسرائيل عندما أرسله الله إليهم، فقال عنهم: إنهم خِراف ضالّة. ولقد جاءهم عيسى عليه السلام بالمعجزات التي «تُدهش العقول» من مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص... فلم يؤمنوا به، بل إن الحواريين الذين آمنوا به قد طلبوا هم الآخرين من عيسى «الآية–المعجزة» التي «تدهش العقول»: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ١١٢-١١٣).

ولذلك فعَلى الرغم من أن دعوة عيسى عليه السلام كانت: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة: ١١٧)، إلا أن قوماً قد ضلّوا فيه، فاستعظموا أن تظهر هذه «الآيات–المعجزات» التي «تدهش العقل» على يد بشر، فاتخذوه وأمه إلهَين من دون الله.

تلك كانت مسيرة الإنسانية مع رسالات السماء...

فتعبيراً عن قصور هذه الإنسانية في «الرشد العقلاني»، كان استنكار الأكثرية «جدارة البشر» بالنبوة والرسالة والنـزوع إلى أن تكون «معجزة» الرسول مما «يدهش العقل» ولا يحتكم إليه.

ولهذا رأينـا القرآن الكريم –وهو المعجزة العقلية الخالدة للرسالة الخاتمة– يلحّ مع بقايا هـذه الفكرية الجاهلية على بشرية محمد بن عبـد الله ﷺ، ليعلن ويؤكد:



النعل الشريف للرسول ﷺ / متحف طوب قابي – إسطنبول

• جدارة البشر بالاصطفاء الإلهي نبيا ورسولاً،

• واستحالة أن يكون النبي والرسول إلا بشراً يوحَى إليه،

• وانتهاء الطور الساذج من المسيرة التطورية للإنسان، والذي كانت تناسبه «الآيات-المعجزات» التي «تدهش العقل». فلقد أخلى هذا الطور المكانَ لطور بلغت فيه الإنسانية «رشدها». وإذا كان الإسلام هو الرسالة الخاتمة، وبها ارتفعت الوصاية عن الإنسان، فلا بد وأن يلعب «العقل» دَوراً قائداً في «رشد» هذا الإنسان وفي «إرشاده»؛ ومن ثم فإن «طبيعة الإعجاز» في معجزة سيدنا محمد ﷺ لا بد وأن تختلف عن طبيعتها في معجزات الرسل السابقين، إنها لن «تدهش العقل»، بل ستتخذه حكَماً وحاكماً.

طور الرشد والرسالة الخاتمة

نعم، لقد وقف هذا السبب خلف إلحاح القرآن الكريم على «بشرية» محمد بن عبد الله ﷺ رغم أن هذه «البشرية» لم تكن موضع خلاف ولا موطن شبهات.

فمن العرب من ردد مقولة الأمم السابقة: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (الأنبياء: ٣)، بل وطلبوا ما طلبته تلك الأمم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء: ٥). وأمام هذا «المنطق الجاهلي» الذي وقف بأصحابه عند «جاهلية الإنسانية» توالت آيات القرآن تكشف زيف هذا «المنطق»؛ فالتكذيب والعناد والجحود هو سبب الكفر، وليس الافتقار إلى «الآية-المعجزة» «المدهشة للعقل»، وذلك بدليل أن مجيء معجزات الرسل السابقين على هذا النحو لم تحول قومهم من الكفر إلى الإيمان: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٦). كما أن الرسل كانوا دائماً، بشراً يأتيهم وحي السماء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧-٨)، وبلوغ الإنسانية «طور الرشد» قد آذن بختام «طور النبوة والرسالة»، الأمر الذي أفسح «للعقل الإنساني» مكانا عالياً في «ترشيد» الإنسان و«هدايته». ولذلك كله اختلفت «طبيعة الإعجاز» في معجزة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ۞ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾ (الإسراء: ٨٨-٩٣)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٥).

ولقد كان القرآن الكريم، بهذا المنطق، يقطع الطريق على كل المحاولات التي يمكن أن تظهر من ضعاف العقول، وضعاف الإيمان «بالعقل»، لتشكك في «بشرية» الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠). فهذا التأكيد على «بشرية» الرسول، وثيق الصلة بالتأكيد على ضرورة أن تبقى عقيدة «التوحيد» في التصور الإسلامي محتفظة بنقائها الشديد.

وفي هذا الضوء وجب ويجب على العقل المسلم أن ينظر إلى كل القصص والأخبار التي نَسبت وتَنسب إلى الرسول ﷺ، الخوارق المادية المدهشة للعقول، والتي هي من جنس معجزات الرسل الذين سبقت رسالاتهم رسالة الإسلام، عندما لم تكن البشرية قد بلغت سن الرشد الذي آذنت به رسالة الإسلام.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول، محذِّراً أمّته من استعارة سذاجة الأمم التي سبقت، والسير على نهجها في الانحراف عن «الرقي والبساطة» اللتين تميزت بهما عقائد الإسلام: «لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبّ لدخلتموه»؟! (رواه البخاري ومسلم).

إن «بشرية الرسول» التي تؤكدها «معجزته-القرآن» ليست مجرد «تحصيل حاصل»، وإنما هي «ثورة» على التصورات الجاهلية للأمم السابقة، عن «طبيعة الرسل» و «طبيعة المعجزات». كانت كذلك عندما تحدث عنها القرآن الكريم، وهي لا تزال كذلك، «ثورة» على «التصورات» التي طرأت على أفكار ومواريث بعض التيارات الإسلامية التي استنامت للقصص الخرافي ولم تتخذ من العقلانية الإسلامية موقفاً وديّاً.

(*) كاتب ومفكر إسلامي - مصر.

«أردتُ أن أعرف صفات ذلك الرجل [ﷺ] الذي ملَك بدون نزاع قلوب ملايين البشر.. لقد أصبحتُ مقتنعا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهّدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف.»

مهاتما غاندي / محرر الهند



كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط/ متحف طوب قابي - إسطنبول

التسامح في الإسلام

أ.د. محمود حمدي زقزوق *

الإسلام دين عالمي يتجه برسالته إلى البشرية كلها، تلك الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وتُرسي دعائم السلام في الأرض، وتدعو إلى التعايش الإيجابي بين البشر جميعاً في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم. فالجميع ينحدرون من «نفس واحدة»، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء: ١).

وعالمنا اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى، نظراً لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية التي أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، حتى أصبح الجميع يعيشون في قرية كونية كبيرة.

والإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كل الأديان والثقافات. فقد جعل الله الناس جميعاً خلفاء في الأرض التي نعيش فوقها، وجعلهم شركاء في المسئولية عنها، ومسئولين عن عمارتها مادياً ومعنوياً كما يقول القرآن الكريم: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦٢). أي طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها. ومن أجل ذلك ميّز الله الإنسان بالعقل وسلّحه بالعلم حتى يكون قادراً على أداء مهمته وتحمل مسئولياته في هذه الحياة.

ولهذا يوجه القرآن الكريم خطابه إلى العقل الإنساني الذي يعد أجلّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان. ومن هنا فإن على الإنسان أن يستخدم عقله الاستخدام الأمثل؛ وفي الوقت نفسه يطلب القرآن من الإنسان أن يمارس حريته التي منَحها الله له والتي هي شرط ضروري لتحمل المسئولية. فالله سبحانه لا يرضى لعباده الطاعة الآلية التي تجعل الإنسان عاجزاً عن العمل الحر المسئول. فعلى الإنسان إذن أن يحرص على حريته وألا يبددها فيما يعود عليه وعلى الآخرين بالضرر.

ومن شأن الممارسة المسئولة للحرية أن تجعل المرء على



اللحية الشريفة للرسول ﷺ / متحف طوب قابي – إسطنبول

وعي بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضاً؛ لأن لهم نفس الحق الذي يطلبه الإنسان لنفسه. وهذا يعني أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هي علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدرٍ من حريته في سبيل قيام مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع. وهذا يعني بعبارة أخرى أن هذا المجتمع الإنساني المنشود لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا ساد التسامح بين أفراده، بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه.

التسامح الإيجابي الشامل

ولا شك في أن وعينا بأننا خطّاؤون[1] يواكبه في الوقت ذاته وعينا بمسئوليتنا التي ترتكز عليها كرامتنا الإنسانية، الأمر الذي يمكّننا من السلوك القويم المتسامح حيال الآخرين الذين يشاركوننا في الإنسانية، والذين ينبغي أن يربطنا بهم رباط التضامن الإنساني المشترك. والتسامح –كما ألمحنا– يقوم على الاعتراف بحرية وكرامة كل إنسان. ونحن مطالَبون أخلاقيّا ودينيّا أن نكون متسامحين مع كل البشر بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والثقافية والدينية والأيديولوجية.

ولا يكتفي الإسلام بتعليم أتباعه هذا التسامح الشامل بوصفه شرطاً من شروط السلام الضروري للمجتمع الإنساني، بل يطلب منهم أيضاً الالتزام بالسلوك العادل الذي لا يقبل بالآخر فحسب، بل يحترم ثقافته وعقيدته وخصوصياته الحضارية. وخَير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التسامح أنه تسامح إيجابي وليس تسامحاً حيادياً. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدّين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

ومن الملاحظ في هذه الآية وفي آيات أخرى كثيرة أن القرآن لم يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر، وإنما استخدم أسلوب التنبيه والتوجيه الذي يتطلب استخدام العقل الإنساني. ومن عادة القرآن أن يعالج المشكلات بطريقة متدرجة تتفق مع ثقافة كل فرد. والإسلام لا يريد أن يقول للناس كلاماً ليحفظوه ويعملوا به بطريقة آلية، وإنما يريد تربية النفس وتحقيق الذات والعمل المسئول الذي يؤدَّى عن اقتناع.

ويشتمل النص القرآني الذي أوردناه على ثلاثة أمور؛ أولها: أن الله سبحانه وتعالى لم ينه عن التسامح مع الآخرين. وثانيها: أن التسامح مع الآخرين الذين لم يعتدوا على المسلمين والتعايش الإيجابي معهم بالبر والقسط هو العدل بعينه. وثالثها: التأكيد على أن من يسلك هذا السبيل يَحظَى بحبّ الله سبحانه وتعالى.

وبهذا الأسلوب المقنع الذي يخلو من الإكراه على فعل شيءٍ ما أو الامتناع عنه تصل الرسالة القرآنية –رسالة التسامح– إلى النفوس في يسر وسهولة، وتحقق الهدف المطلوب وهو نشر التسامح بين الناس على أوسع نطاق.

التسامح والتعددية

ومن هنا لا يجوز أن يُنظر إلى اختلاف الجماعات البشرية في أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنها تمثل حائلاً يعوق التقارب والتسامح والتعايش الإيجابي بين الشعوب. فقد خلق الله الناس مختلفين: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ (هود: ١١٨-١١٩)، كما يقول القرآن الكريم.

ولكن هذا الاختلاف بين الناس في أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم لا ينبغي أن يكون منطلقاً أو مبرراً للنـــزاع والشقاق بين الأمم والشعوب، بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعاً إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصْبون إليه من تبادل للمنافع وتعاون على تحصيل المعايش وإثراء للحياة والنهوض بها. ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣)، والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون في جميع المجالات.

التسامح والحوار

إن الحوار في معناه الصحيح لا يقوم ولا يؤدي إلى الهدف المنشود إلا إذا كان هناك احترام متبادل بين أطراف الحوار، واحترام كل جانب لوجهة نظر الجانب الآخر. وبهذا المعنى فإن الحوار يعني التسامح واحترام حرية الآخرين، واحترامُ الرأي الآخر لا يعني بالضرورة القبول به. وليس الهدف من الحوار مجرد فكّ الاشتباك بين الآراء المختلفة أو تحييد كل طرف إزاء الطرف الآخر، وإنما هدفُه الأكبر هو إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين الناس، وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير، وذلك بالبحث عن القواسم

المشتركة التي تشكل الأساس المتين للتعاون البنّاء بين الأمم والشعوب. والحوار بهذا المعنى يُعد قيمة حضارية ينبغي الحرص عليها والتمسك بها وإشاعتها على جميع المستويات.

والوعي بذلك كله أمر ضروري يجب أن نعلمه للأجيال الجديدة، وبصفة خاصة عن طريق القدوة وليس عن طريق التلقين. ولا جدال في أن الحوار قد أصبح في عصرنا الحاضر أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات، وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة.

وإذا كانت بعض الدول في القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار، فإن على المجتمع الدولي أن يصحّح الأوضاع، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضاري في التعامل وهو الحوار. فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النـــزاعات إلا من خلال الحوار.

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعارف[٢] بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان –على الرغم من الاختلافات فيما بينها– كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان. وذلك لما للأديان من تأثير عميق في النفوس. ويعد الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

ولم يكتفِ القرآن بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسم المنهج الذي ينبغي اتباعه في مثل هذا الحوار. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْــلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِــي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْــزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

أما الحكم على الآخرين الذين يشاركوننا في الإنسانية، فيجدر بنا أن نتركه لله جل شأنه؛ وخير لنا بدلاً من ذلك أن نجتهد في أن نسلك حيالهم مسلكاً عادلاً متسامحاً طالما لم يسيئوا إلينا. فالدين لا يحفل إلا بالأعمال التي نتحمل نحن مسئوليتها؛ ولهذا يقول القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٥).



الرباعية الشريفة للرسول ﷺ
متحف طوب قابي – إسطنبول

التسامح الديني

ونظراً لما للدين من عمق عميق في النفوس فإن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين، وحلّ محل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة. وقد حرص الإسلام كل الحرص على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصراً جوهرياً من عناصر عقيدة المسلمين.

فالأديان السماوية جميعها تُعد في نظر الإسلام حلقات متصلةً لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مدى التاريخ الإنساني. ومن هنا فإن من أصول الإيمان في الإسلام الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحي إلهي. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ومن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامي في أي حوار ديني بأنه موقف منفتح على الآخرين، ومتسامح إلى أبعد الحدود. فقد أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية، وصارت هذه التعددية من العلامات المميزة في التعاليم الإسلامية. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. فقد تأسس مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية الدينية والثقافية، ومارس المسلمون ذلك من بعده عملياً على مدى تاريخهم الطويل.

ويؤكد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يُكرِهوا أحداً على الدخول في الإسلام. فالحرية الدينية مكفولة للجميع، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذي أكّده القرآن الكريم في قوله: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وفي قوله في موضع آخر: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

ومن القواعد الأساسية المعروفة في الشريعة الإسلامية في شأن التعامل مع أهل الكتاب القاعدة المعروفة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، أي لهم ما لنا من حقوق، وعليهم ما علينا من واجبات.





كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوة والي الأحساء / متحف طوب قابي – إسطنبول

خاتمة

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء إلى أي مدى يعتبر التسامح الإيجابي –بوصفه تسامحاً شاملاً أو تسامحاً دينياً– من العناصر الأساسية في تعاليم الإسلام، وبالتالي من الأهداف التي ترمي إليها التربية الإسلامية.

ومن هنا فإن التزام المسلمين بذلك وحمايتهم لحقوق أتباع الديانات الأخرى الذين يعيشون في المجتمعات الإسلامية أمر يدخل في إطار التزاماتهم الدينية التي تقضي بالحفاظ والدفاع عن الحقوق الإنسانية العامة للجميع. وأي تجاوز أو عدوان على هذه الحقوق يعد تجاوزاً وعدواناً على تعاليم الدين، وهو أمر يجب على المسلمين التصدي له بكل الوسائل. وفي هذا الإطار يُفهم أيضاً حديث النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم). ومن هنا فإنه ليس من التسامح في شيء الوقوف موقف المتفرج حيال الظلم والقسوة اللذين يتعرض لهما أي إنسان، بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو عقيدته.

وفي الختام أود أن أشير إلى إحدى المأثورات الثابتة عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ والتي تعد نموذجاً رائعاً على التسامح الإسلامي الإيجابي. فقد كان عمر ﷺ يتجول كعادته في شوارع المدينة المنورة يتفقّد أحوال الرعية، فرأى شيخاً طاعناً في السن يتسول في الطريق، فسأل عن أمره وعلم أنه يهودي. فحزن الخليفة لما أصاب هذا الشيخ الهرم مما اضطره إلى التسول، وأمر بأن يُخصَّص له ولنظرائه معاش ثابت من بيت مال المسلمين يتيح له حياة كريمة. وهذا الخليفة هو نفسه صاحب العبارة الشهيرة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

ومن هذه الأمثلة –وغيرها كثير– يتجلى بوضوح مدى حرص الإسلام على الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصرف النظر عن انتماءاته العِرقية أو الدينية أو الثقافية. وذلك كله يعبر تعبيراً لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامي الذي سيظل عنواناً على هذا الدين إلى آخر الزمان.

(*) وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – جمهورية مصر العربية.

(١) إشارة إلى الحديث النبوي: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». (رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة).

(٢) كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣).

جمالية التناظر

بَيرام يَرلِيقَايا *



خلال زيارة «باول ديراك» الفيزيائي الشهير وأحد مؤسسي ميكانيكا الكوانتوم لجامعة موسكو، طُلب منه أن يَكْتُب بعض الكلمات في دفتر الشرف للجامعة لكي تُسَجَّل وتُنْقَل إلى الأجيال القادمة. ولما كان «ديراك» يَعْلم أن هذا العرض لا يُقدَّم إلاّ لكبار العلماء، شعر بضرورة التفكير بعض الوقت، لأن الشيء الذي سوف يكتبه -لما كان سيتم نقله إلى الأجيال القادمة- يجب أن يحمل معاني كثيرة من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن يُحَافظ على دَيْمُومَته ورَوَاجه وسَرَيانه بين كل الأجيال. فكتب «ديراك» الذي أَمْسَك بالقلم بين أنامله هذه الرسالة الموجزة: «لا يَخلو قانون فِيزْيَائيّ من جمال رياضي». في الواقع، كان «ديراك» يعلم أن كل المخلوقات تملك حسابات رياضية قوية وكان يُبيِّن ذلك بوضوح. وعند النظر إلى هذه الرسالة الموجزة من هذه الزاوية، فلسوف نُدْرك جيداً ما يُريد أن يقوله.

فكما أن الخواص الطبيعية والكيميائية للموجودات جميعها تابعة لقوانين رياضية، فإن سطوحها الظاهرة أيضاً مرتبطة تماماً بالمبادئ الحسابية. وعند نظرنا للوجود بهذه العين؛ فإننا سنصل بالضرورة إلى الجمال الأخَّاذ البادي في وجهه ومظهره جنباً إلى جنب مع التكامل الكامن في بنائه وتكوينه. هذا الجمال البادي والظاهر في المظهر الخارجي للموجودات التي خُلقت كتجلٍّ لأسماء الله «المصور» و«الصانع» و«البارئ» و«الجميل» هو مرتبط بوجودِ أكثر من عنصر مُتَّحد معاً في نفس اللحظة. إن أهم عنصر من بين هذه العناصر هو الجمال المتناغم والمتناسق في المقاييس فيما بين أجزائه، والذي يُعرَّف بـ «سِيمَتْرِيّة» الجمال؛ إذ إن الموجودات قد خُلقت بإبداع رائع وفي خصوصيات التناظر والتماثل المتعدد جدّاً.



إن أشهر هذه الأنواع السيمترية أي التناظرية هو تماثل «المِرْآة» اليمين والشمال. إن كل جسم يشكّل تناظرًا وتماثلاً كاملاً مع طيفه المنعكس على المرآة. إن التماثل والتناظر الذي لا يختلف عن ذلك قط، هو التماثل الموجود في بدن الإنسان. إن طَيف أو خيال جنبَي اليمين واليسار في أجسادنا هو تماثل وتطابق فيما بينهما. ووفقاً للخط الذي يتم رسمه في الوسَط تماماً لتقسيم البدن إلى قسمين من الجبهة والأنف والفك والصدر، فإن هذا يُعتبر تناظراً بين جزأيْن. ولو أخذنا جزءً من هذين الجزأيْن، وأسندناه على المرآة من نفس المكان الذي تم القطع فيه، فلسوف ينتج خيال أو طيف جسد متطابق تماماً مع الطيف أو الخيال المنعكس على المرآة. والسبب لكي يكون الأمر كذلك هو أن الأَذرع والسِّيقان والعَيْنين والأذنين والأنف والشفاه وما شابه ذلك من كل الأعضاء قد تم خلقها متناظرة وفقاً للخط الذي تحدثنا عنه. نفس هذا التكوين والبناء المتناسق موجود أيضاً في الغالبية العظمى من ذوات الروح. فكل الثدييات والزواحف والطيور قد تم خَلْقُها في هذا البناء المتناظر والمتماثل.

يا تُرى هل فكّرنا قط في هذا السؤال التالي؟ «عند النظر في المرآة لماذا نرى جانبنا الأيمن يساراً وجانبنا الأيسر يميناً، ولا نرى الجزء الأسفل علوياً والجزء الأعلى في الأسفل؟» سؤال منطقي لأنه بالنسبة للمرآة لا فرق في العلاقة بين اليمين والشمال أو بين الأعلى والأسفل. سبب ذلك لا بد وأن يكون متعلقاً بجسمنا نحن. فكّر لو أن بجانبك فردًا يرقد على جانبه الأيمن ووجهه عكسي للمرآة، فلسوف تراه على المرآة كفرد يرقد فوق جانبه الأيمن.

في هذا الوضــع؛ المرآة لم تُغيِّر هي جانبَي اليمين واليسار للشخص الراقــد. بــل الــذي أصبح متغيراً هو طرَفاه العلوي والسفلي. ســبب ذلك؛ هو وجودُ تناســقِ اليسار واليمين لأبداننا. فلو لم يكن تناظُر في جَسَدنا فإن طَيفنا المنعكس على المرآة لن يُشْبِهنا.

أما النَّوع الآخر من التناظر والتماثل؛ فلْنفكر في لوحة معدنية على شكل مثلّث متساوي الأضلاع قد تم تثبيتها فوق الرمال. هذه اللوحة، لو أننا أدَرْنَاها حول المِحور الذي يمر من مركزها ١٢٠ درجة؛ فإن الوضع الجديد للمثلث سوف يتطابق تماماً مع الأثر الذي تركه الوضع القديم لهذه اللوحة فوق الرمال. وسبب ذلك؛ هو وجود تناظر وتماثل في الدوران البالغ ١٢٠ درجة في المثلث المتساوي الأضلاع. وبنفس الشكل في المربع الذي تبلغ زواياه ٩٠ درجة، أما في المُضَلَّع المنتظم (الذي زواياه بعدد n) فيُوجد به تناسق وتناظر بدوران n/٣٦٠ درجة.

إن تناظر وتماثل كرستالات أي بلورات الثلج السداسية لتُعدّ واحدة من أهم الأطياف التي تلفت أنظار بني البشر.

كما أن هناك أيضاً أشكالاً تمتلك سيمترية الدوران الثلاثي الأبعاد. أهم هذه الأشكال؛ هي تلك الأشكال المسطّحة المتعددة السطوح والأوجه والتي تُعرف على أنها خمسة أشكال منذ عصر أفلاطون. وكمثال لهذه الأشكال المتعددة الأسطح، نقدم كِرستالات الملح التي تأخذ شكل مكعب. فحتى زمن قريب، لم يكن يُعرف إن كان في الكائنات موجودات ذات عشرين سطحا متناسقاً أو لا، ولكن بتثبيت وتحديد الغدد الفيروســية (Adenovirüs) التي تفتح الطريق أمام الإنْتَان أي التلوث المكروبي ومرض الكبد لدى الكلاب، قد ثبت واتضح أن هناك بالفعل مخلوقات ذات عشرين وجهاً متناسقاً ومتناظراً. ولكن أجمل مثال للتناسق والتناظم في عالم النورمو (Normo) نراه في الزهور المشابهة لزهرة الأُقْحُوَان.

إن الأبنية المتناظرة ليست في عالم الذرات والجزيئات أو عالم الإنسان فقط بل يمكن رؤيتها أيضاً في عالم الكون الشائع. إننا لو استطعنا أن نقوم بتصغير هذه الأحجام العظيمة التي نراها في أعماق السماء ونضعها أمام الأعين، لاستطعنا أن نُشاهد تناظرات وتناسقات متعددة ومختلفة، حتى ذلك التماثل الحلزوني المنفصل للمجموعات النَّجْمِيَّة والمتولد عن حركاتها المتناسقة والمتناغمة للكواكب السيارة التي تدور حول الشمس.

والميزة الملفتة للنظر أيضاً هي أن التناظر الموجود في ذوات



الروح يمكن رؤيته بالعين المجردة، وأنه ظاهر للعيان في المظهر الخارجي أكثر من الأعضاء الداخلية للأحياء. فمثلاً لا يوجد تناظر أو تماثل في الأعضاء الداخلية في جسم الإنسان مثل الرئة والكبد والمعدة والأمعاء، كما لا يوجد قلب في الجانب الأيمن للبدن مثلما هو موجود في الجانب الأيسر. بالإضافة إلى ذلك، فإن أنصاف الكرة في المخ ليست متناظرة أو متماثلة. وعلى الرغم من ذلك، فإن الفعاليات المتصلة ببناء البرُوتُوبلازْما اللازمة لتأمين الطاقة الضرورية للأعمال والأنشطة الحَيَوِيَّة والتي يُستعاض بها عن المُنْدَثِر منها، هذه الأنشطة تتم على أكمل وجه. تُرى هل هذا الجمال الحسابي الموجود في المظهر الخارجي لذوات الروح قد مُنِح من أجل علم الجمال فقط؟ إن الله ﷻ لم يخلق الكائنات بمقصد واحد أو غاية واحدة، بل خلقها ضمن علاقَات وظائفية وحِكَم مُتعدِّدَة جدّاً. فلو لم تُخلق أعيننا مُزْدَوجة ومتناظِرة وتوضع في أماكنها في شكل متماثل، لما رأينا الأشياء والأجسام بأبعادها الثلاثة، بمعنى أننا لن نرى بعمق. وبنفس المنطق لو لم تُخلق آذاننا بشكل متناظر ومتماثل، لأصبح من الصعب علينا تحديد اتجاه الأصوات وأبعادها؛ ولو لم تكن أقدامنا مُتَماثلة، لما استطعنا السير بشكل متوازن؛ ولو لم تكن أذرعنا متماثلة لما استطعنا أن نحمي مركز الثقل لأبداننا عند السير؛ ولو لم تكن أجنحة الطيور متماثلة، لما استطاعت الطيران؛ ولو لم تكن زَعانف الأسماك متماثلة، لما استطاعت أن تعوم بشكل متوازن... كل هذا يُظهر ويُبيِّن أن في التماثل والتناظر الذي أَوْدَعه الله في المخلوقات يكمن جمال باهر وحِكَمٌ كثيرةٌ لا تعد ولا تحصى.

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصفصافي أحمد القطوري.

المصادر:

(1) I. Stewart & M. Golubitsky, Fearful Symmetry, Blackwell 1992.

(2) J. Rosen, Symmetry Discovered, Cambirdge University, Pres 1972.

(3) This Amazingly Symmetrical World.



القصيدة الحُجْرِية:

أشواق عشقية في حضرة سيّد الإنسانية

أ.د. سعدي جوغنلي – سلامي باقيرجي *

السلطان عبد الحميد الأول هو السلطان السابع والعشرون بين السلاطين العثمانيين. ولد في ٢٠ آذار / مارس ١٧٢٥، وهو نجل السلطان أحمد الثالث، أما والدته فهي السلطانة شرمي خانم. تتلمذ على أفضل علماء عصره ونهل منهم العلوم الشرعية والأدبية والإنسانية منذ الطفولة، وقد كان غاية في الذكاء والفطنة.

جلس على كرسي الخلافة بعد وفاة شقيقه السلطان مصطفى الثالث في ٢١ كانون الثاني / يناير ١٧٧٤، وكان عمره آنذاك تسعا وأربعين سنة. اهتم أثناء حكمه بإصلاح الشأن الداخلي للدولة، كما وقف في وجه هجمات جحافل الروس القادمة من شمال البلاد. فعندما تولى إدارة البلاد كانت الدولة في أزمة اقتصادية شديدة بسبب الحرب الضروس ضد روسيا. وتوالت الغارات الروسية وظلّتْ جيوشها تتقدم حتى استولت على قلعة «أوزي» الواقعة في الأراضي البولندية اليوم، وقلعة «هوتين» الواقعة ضمن الأراضي الروسية اليوم، وكانتا قاعدتَين إستراتيجيتين في هذه الحرب، حتى وصلت إلى شواطئ الضفة العليا من البحر الأسود، فارتكبت مجازر دامية ضد أهالي «قيرم» المسلمين دون التمييز بين مدنيين أو محاربين. ولما بلغت الأنباء المؤلمة السلطان عبد الحميد حزن حزنا شديدا وتأثر تأثرا بالغا أدّى إلى إصابته بشلل في بدَنه، ومن ثم إلى وفاته في ٧ نيسان / أبريل من عام ١٧٨٩. ودفن جثمانه في مقبرة «باغجة قابي» بمنطقة «أمين أونو» من إسطنبول. وكان رحمه الله تقيا ورعا رؤوفا برعيته.

وقد أعرب السلطان عبد الحميد الأول في يومياته عن مَرارة الألم الذي شعر به عقب سقوط قلعتي «هوتين» و«أوزي» بيد الروس والمجازر التي ارتكبوها ضد المدنيين الأبرياء في «قيرم» قائلا: «أحسست بغُصّة مريرة وحزن شديد عندما علمت بسقوط قلعة «أوزي». وما من ألم أشد وطأة على قلبي من تصوري للمسلمين رجالا ونساء، صغارا وكبارا وهم أسرى بيد هؤلاء الظلمة. يا رب! يا من يجيب المضطر إذا ظُلم، يا كاشف الضر والبلوى، إني أرفع أكفّ الضراعة إليك لكي تردّ قلعة «أوزي» إلى أصحابها المسلمين».

كان السلطان عبد الحميد الأول معروفا بحبه الشديد لرسول الله ﷺ ولأهل بيته الأطهار، ومن ثم لم يألُ جهدا في تقديم كافة الخدمات اللازمة للحرمين الشريفين؛ وهو الأمر الذي دأب عليه السلاطين العثمانيون منذ القدم؛ حيث أرسلوا الهدايا الثمينة إلى أهالي الديار المباركة، وخصصوا لها الأوقاف، وعملوا على إصلاح طرقها ومرافقها، وجهّزوا المحامل الشريفة محملة بأغلى التّحَف وأجمل الهدايا.

ومن المعروف عنهم أيضا أنهم نظموا قصائد وأشعارا عبّروا فيها عن حبهم للرسول ﷺ وأشواقهم إلى الأراضي المقدسة. وقد كان السلطان عبد الحميد الأول أحد السلاطين الذين يُجيدون قول الشعر باللغة العربية، حيث كان بارعا في اللغة العربية ضليعا في آدابها؛ وآية ذلك قصيدته التي اشتهرت بـ«القصيدة الحجرية»، والتي نظمها على وزن البحر البسيط وأهداها إلى صاحب «الروضة المطهَّرة» عليه وعلى آله أفضل الصلوات والتسليم. وقد سميت بـ«القصيدة الحُجْرية» لأنها كُتبت على الجدار القبلي من حجرة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام. وقد لَقيت القصيدة قبولا واسعا لدى العاشقين فأدرجوها في كتب أورادهم وأذكارهم مثل كتاب «مجموعة الأحزاب» للشيخ ضياء الدين الكموشخانوي. يبدأ السلطان المتيَّم قصيدته بعبارة شجية تعبر عن لهيب الحب المتأجج في أعماقه حيث يقول: «يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي/مالي سواك ولا ألوي إلى أحد».

وفيما يلي النص الكامل للقصيدة الحُجْرية التي علِمنا أنها لا تزال على جدران الروضة النبوية حتى اليوم:

(*) كلية الآداب – جامعة أتاتورك – تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

القصيدة الحُجْرِية

يَا سَــيِّدِي يَا رَسُــولَ اللهِ خُذْ بِيَدِي ... مَا لِي سِــوَاكَ وَلاَ أَلْوِي إِلَى أَحَد

فَأَنْـــتَ نُـــورُ الْهُدَى فِي كُلِّ كَائِنَةٍ ... وَأَنْتَ سِــرُّ النَّدَى يَا خَيْرَ مُعْتَمَدِي

وَأَنْتَ حَقّاً غِيَــاثُ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ ... وَأَنْتَ هَادِي الْوَرَى لِلهِ ذِي السَّدَدِ

يَــا مَــنْ يَقُومُ مَقَامَ الْحَمْدِ مُنْفَرِداً ... لِلْوَاحِــدِ الْفَرْدِ لَــمْ يُولَدْ وَلَمْ يَلِدِ

يَــا مَــنْ تَفَجَّرَتِ الْأَنْهَــارُ نَــابِعَةً ... مِنْ إِصْبَعَيْهِ فَأَرْوَى الْجَيْشَ بِالْمَدَدِ

إِنِّي إِذَا مَسَّــنِي ضَيْمٌ يُــرَوِّعُــنِــي ... أَقُولُ: يَــا سَيِّدَ السَّادَاتِ يَا سَنَدِي

كُنْ لِي شَفِيعاً إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ زَلَلِي ... وَامْنُنْ عَلَيَّ بِمَا لاَ كَانَ فِي خَلَدِي

وَانْظُرْ بِعَيْنِ الرِّضَــا لِي دَائِماً أَبَــداً ... وَاسْتُرْ بِطَوْلِكَ تَقْصِيرِي مَدَى الْأَبَدِ

وَاعْطِفْ عَلَيَّ بِعَفْوٍ مِنْكَ يَشْــمَلُنِي ... فَإِنَّنِي عَنْكَ يَــا مَوْلَايَ لَمْ أَحِــدِ

إِنِّي تَوَسَّلْتُ بِالْمُخْتَارِ أَشْــرَفِ مَنْ ... رَقَى السَّمَاوَاتِ سِرِّ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ

رَبُّ الْجَــمَــالِ تَعَالَى اللهُ خَــالِقُهُ ... فَمِثْلُهُ فِي جَمِيعِ الْخَلْقِ لَــمْ أَجِدِ

خَيْرُ الْخَلاَئِقِ أَعْلَى الْمُرْسَــلِينَ ذُرًى ... ذُخْرُ الْأَنَامِ وَهَادِيهِمْ إِلَى الرَّشَــدِ

بِــهِ الْتَــجَــأْتُ لَعَلَّ اللهَ يَغْفِرُ لِــي ... هَــذَا الَّذِي هُوَ فِي ظَنِّي وَمُعْتَقَدِي

فَمَدْحُهُ لَــمْ يَزَلْ دَأْبِي مَدَى عُمُرِي ... وَحُبُّهُ عِنْــدَ رَبِّ الْعَرْشِ مُسْتَنَدِي

عَلَيْهِ أَزْكَى صَــلاَةٍ لَمْ تَــزَلْ أَبَــداً ... مَــعَ السَّلاَمِ بِلاَ حَصْرٍ وَلاَ عَــدَدِ

وَالْآلِ وَالصَّحْبِ أَهْلِ الْمَجْدِ قَاطِبَةً ... بَحْرِ السَّمَاحِ وَأَهْلِ الْجُودِ وَالْمَدَدِ



«لا يمكن استيعاب شخصية محمد [ﷺ] بكل جوانبها. فهناك محمد النبي، ومحمد المحارب، ومحمد رجل الأعمال، ومحمد رجل السياسة، ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح، ومحمد ملاذ اليتامى، وحامي العبيد، ومحمد محرر النساء، ومحمد القاضي... كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلا.»

البروفسور رما كريشنا، عن كتابه «محمد النبي»







في علوّ شأنه ورفعة منزلته

أ.د. علي جمعة *

الرحمة المُهداة للبشرية

للنبي ﷺ عند ربه مقام عظيم وقدر جليل، فاق كل الخلائق أجمعين؛ فهو ﷺ سيد ولد آدم، بل هو سيد الأكوان وصفوتها، وهو خير من الملائكة وخير من العرش، ولا يعرف حقيقته وعظيم قدره إلا خالقه ﷻ.

وقد خصّه ربنا بمزايا عديدة، وأثنى ربنا عليه ﷺ، فأكثر الثناء عليه، ونوع أشكال المدح له؛ فتارة يمدحه مجملاً وتارة يمدحه مدحاً مفصَّلاً، وذكره في قرآنه بأجلّ الصفات، بل لم يُناده ربنا قط باسْمه مجرداً كما نادى الأنبياء قبله، بل كان دائما يقول له: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ﴾، أو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، أو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، أو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾.

وقد أثنى ربنا عليه في كتابه بصفات شريفة، فوصفه ربنا بالرحمة فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء: ١٠٧)، وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة: ١٢٨). وكذلك وصفه ربنا سبحانه بأنه النور الهادي للحق فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾(الأحزاب: ٤٥-٤٦). وقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥).

ذكر أعضائه الشريفة في القرآن

ومن أجلّ الصور التي ميّز الله ﷻ نبيه الكريم ﷺ، ذكره له في قرآنه بأغلب أعضائه الشريفة ﷺ. فليس هناك ملك مقرب ولا نبي مُرسل أثنى الله على أعضائه وخصاله بهذا التفصيل قطّ.

فذكر ربنا وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾(البقرة: ١٤٤)، ويشمل هذا السياق على مدح جليل فوق ذكر الوجه. ووجه المدح هنا أنه بمجرد تقلُّب وجهه الشريف أعطاه الله به ما أراد دون سؤال منه ولا كلام، فكانت بركة وجهه في تقلبه معطية له ما تمناه ومنيلة له ما يرضاه ﷺ.

وكان قد ذُكر وجهه في مواضع أخرى فقال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(البقرة: ١٤٤)، وقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(البقرة:



١٤٩)، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾(آل عمران: ٢٠). وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾(يونس: ١٠٥)، وقال عز من قائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾(الروم: ٤٣).

وكذلك ذكر الله عَينيه ﷺ في أكثر من موضع في قرآنه، فقال سبحانه: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾(الحجر: ٨٨)، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾(الكهف: ٢٨)، وقال سبحانه: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾(طه: ١٣١).

وذكر ربنا رؤيته ﷺ في أكثر من موضع كذلك فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(النجم: ١٨)، وفي هذا ثناء على رؤيته ومدحٌ بأنه رأى من الآيات ما لم يره أحد قبله ﷺ. وقال سبحانه للمشركين زاجراً لهم على تكذيبه ما يرى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾(النجم: ١٢)، ثم أخبر ربنا سبحانه وتعالى أن نبيه ﷺ خُصّ برؤية جبريل عليه السلام على صورته فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (النجم: ١٣).

كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى بَصَره الشريف ﷺ في أكثر من موضع من كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(النجم: ١٧)، وفي هذا السياق مَدحٌ فوق الذكر؛ إذ أثنى ربنا على البصر وأنه صادق غير زائغ. وقال سبحانه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾(القلم: ٥)، وقال جل وعلا: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾(الصافات: ١٧٥)، وقال سبحانه: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾(الصافات: ١٧٩).

ولقد ذكر الله أُذنه ﷺ في أكثر من موضع كذلك، فقال تعالى في ذكر الأُذن رداً على الكافرين: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٦١).

وكذلك ذكر ربنا سمعه الشريف ﷺ في عدة مواضع من كتابه العزيز فقال سبح انه: ﴿فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ (طه: ١٠٨).

وذكر ربنا ﷺ منطقه ومدَحه سبحانه فقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (النجم: ٣)، فبيّن صدق منطقه ﷺ وصواب حديثه. وكذلك امتدح ربنا صوته بالإجلال والتعظيم، وحذّر الصحابة من التعالي على هذا القدر فقال سبحانه: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات: ٢).

وذكر سبحانه وتعالى لسانه الشريف ﷺ في أكثر من موضع في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾(مريم: ٩٧)، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(الدخان: ٥٨)، وقال سبحانه: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (القيامة: ١٦).

وذكر الله سبحانه وتعالى صَدره الشريف ﷺ في كتابه العزيز كذلك في العديد من المواضع فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١)، وفيه إشارة إلى نعمة من نعم الله عليه، وفضيلته ﷺ بشرح صدره. وقال الله مُطَمْئنًا لحبيبه المصطفى ﷺ: ﴿فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٢)، وكذلك ذكر صدره في تسليته له بقوله تعالى: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود: ١٢)،



القوس الشريف للرسول ﷺ / متحف طوب قابي – إسطنبول

وذكر الله صدره في سياق آخر ليثبّته ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر: ٩٧).

كذلك ذكر الله قلبه الشريف ﷺ في أكثر من موضع في كتابه العزيز، واشتمل الذكر الثناء عليه ﷺ فقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْــهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٧)، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران: ١٥٩)، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٣–١٩٤)، بل إن ربنا أثنى على قلب نبيه ﷺ ثناءً عظيما عندما أثبت أن قلبه ﷺ أقوى من الجبال في تحمل التنــزلات الإلهية والوحي فقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)، وقد أنزله الله على قلبه ﷺ فتحمّل ما لا يتحمل الجبل الأشم الراسخ.

وخصّ ربنا فؤاده ﷺ بالذكر في الكتاب العزيز بما اشتمل الثناءَ على فؤاده الشريف ﷺ فقال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾(النجم: ١١)، وقال سبحانه مبشّرا له: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠)، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (الفرقان: ٣٢).

وقد ذكر الله يده الشريفة ﷺ في سياق الأمر بالتوسط بين التقتير والتبذير فقال ﷻ: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ (الإسراء: ٢٩). كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى ظَهر النبي ﷺ في سياق الامتنان عليه فقال تعالى: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (الشرح: ٣).

نسَبه الشريف

وذكر الله ﷻ خصاله ومتعلقاته الشريفة من غير الأعضاء وأثنى عليها؛ ومن هذه الخصال نسبه الشريف ﷺ فقال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾(الشعراء: ٢١٩). فعن ابن عباس رضي الله عنه –في قوله تعالى: وتقلبك في الساجدين– قال: «أي في أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً».(تفسير القرطبي).

فكان أنسب الأنبياء بين أقوامهم، وكان أنسب القوم على الإطلاق، كما أخبر ﷺ بنفسه، فعن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» (مسند أحمد). وعن عمّه العباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير قرنهم، ثم تخيّر القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»(رواه الترمذي).

فهو سيدنا أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأمه ﷺ السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب المذكور في نسبه ﷺ وهو الجد الخامس له ﷺ.

نسب كأن عليه من شمس الضحى
نورا ومن فلق الصباح عمودا
ما فيه إلا ســيد مــن ســيد
حاز المكارم والتّقى والجودا

كذلك أجلّ الله عُمر نبيه، ومدة بقائه على الأرض، إذ أقسم بها في كتابه فقال ﷻ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢). كما أجلّ ربنا سبحانه وتعالى البلد الذي يقيم فيه رسولنا الكريم ﷺ فقال سبحانه وتعالى في مدحه لبلد الحبيب ﷺ: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۞ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد: ١- ٢).

وأثنى ربنا ﷻ على نسائه ﷺ. وما بلغن هذا المبلغ إلا لتعلقهن بالنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾(الأحزاب: ٣٢)، وقال سبحانه في نفس هذا المعنى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦).

ونحن إنما نذكر ما ذكرناه تعبيرا منا على قدره الشريف في تلك المناسبة العظيمة، ألا وهي مناسبة مولده الشريف ﷺ.

الاحتفال بالمولد الشريف

فلقد كان المولد النبوي الشريف إطلالة للرحمة الإلهية بالنسبة للتاريخ البشري جميعه، فلقد عبر القرآن الكريم عن وجود النبي ﷺ بأنه «رحمة للعالمين»، وهذه الرحمة لم تكن محدودة، فهي تشمل تربية البشر وتزكيتهم وتعليمهم وهدايتهم نحو الصراط المستقيم، وتقدمهم على صعيد حياتهم المادية والمعنوية، كما أنها لا تقتصر على أهل ذلك الزمان بل تمتد على امتداد التاريخ بأسره ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾(الجمعة: ٣).

والاحتفال بذكرى مولد سيد الكونين وخاتم الأنبياء والمرسلين نبي الرحمة وغوث الأمة سيدنا محمد ﷺ من أفضل الأعمال وأعظم القربات، لأنها تعبير عن الفرَح والحب للنبي ﷺ. ومحبّة النبي ﷺ أصل من أصول الإيمان، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (رواه البخاري).

قال ابن رجب: «محبّة النبي ﷺ من أصول الإيمان، وهي مقارنة لمحبة الله عز وجل، وقد قرنها الله بها، وتوعد من قدّم عليهما محبّة شيء من الأمور المحبّبة طبعاً من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (التوبة: ٢٤). ولما قال عمر للنبي ﷺ: أنت أحبُّ إليّ من كل شيء إلاّ من نفسي، فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك»، فقال عمر: والله أنت الآن أحبُّ إليّ من نفسي، قال: «الآن يا عمر»(رواه البخاري).

والاحتفال بمولده ﷺ هو الاحتفاء به، والاحتفاء به ﷺ أمر مقطوع بمشروعيته، لأنه أصل الأصول ودعامتها الأولى؛ فقد علم الله ﷻ قدر نبيه، فعرّف الوجود بأسره باسمه وبمبعثه وبمقامه وبمكانته، فالكون كله في سرور دائم وفرح مطلق بنور الله وفرجه ونعمته على العالمين وحجته.

وقد درج سلفنا الصالح منذ القرن الرابع والخامس على الاحتفال بمولد الرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه بإحياء ليلة المولد بشتى أنواع القربات من إطعام الطعام وتلاوة القرآن والأذكار وإنشاد الأشعار والمدائح في رسول الله ﷺ، كما نصّ على ذلك غير واحد من المؤرخين مثل الحافظَين ابن الجوزي وابن كثير، والحافظ ابن دحية الأندلسي، والحافظ ابن حجر، وخاتمة الحفاظ جلال الدين السيوطي رحمهم الله تعالى.

وألّف في استحباب الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف جماعة من العلماء والفقهاء بينوا بالأدلة الصحيحة استحباب هذا العمل؛ بحيث لا يبقى لمن له عقل وفهم وفكر سليم إنكار ما سلكه سلَفُنا الصالح من الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، وقد أطال ابن الحاج في «المدخل» في ذكر المزايا المتعلقة بهذا الاحتفال، وذكر في ذلك كلاماً مفيداً يشرح صدور المؤمنين، مع العلم أن ابن الحاج وضع كتابه «المدخل» في ذم البدع المحدثة التي لا يتناولها دليل شرعي.

وفي الختام لا أجد أفضل من قول البوصيري رحمه الله إذ يقول:

فهو الذي تم معناه وصورته
ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النسمِ

منزهٌ عن شريك في محاسنه
فجوهر الحسن فيه غير منقسمِ

دع ما ادّعتْهُ النصارى في نبيهم
واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف
وانسب إلى قدره ما شئت من عظمِ

فإن فضل رسول الله ليس له
حدٌّ فيعرب عنه ناطقٌ بفمِ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(*) مفتي الديار المصرية.

الطبيعة الأخلاقية في حروب الرسول ﷺ

صلح الحديبية وفتح مكة نموذجاً



من ألبوم السلطان عبد الحميد الثاني

أ.د.عبد الحليم عوَيس *

كان الرسول ﷺ قد وعد المسلمين بأن قريشا لن تغزوهم في المدينة بعد الخندق. وقد كانت مشاعر المسلمين لا سيما المهاجرين قد تأجّجت تهفو لزيارة مكة البلد الحرام، وطنِ المهاجرين الذين طالت غربتُهم واشتد حنينهم.

إنهم يعيشون منذ ستّ سنوات على هذا الأمل، وبعضهم ربما نزح من الحبشة إلى المدينة مباشرة، دون أن يرى بلده مكة، فطالت غيبته أكثر... ولهذا كان الرسول ﷺ يزرع فيهم الأمل ويعدهم بفرج قريب، بعد أن استنفدت قريش كل طاقتها وخابت كل جهودها وضاعت كل أحلامها وانتصرت القلة المؤمنة المظلومة.

صلح الحديبية

يروي ابن اسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول الله ﷺ أصحابه بالعمرة. ولهذا خرج الرسول ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه إلى مكة ليس معهم إلا السيوف في القِرَب. وقد وصل الرسول ﷺ إلى الحديبية، وهي مكان يبعد عن مكة ما بين ٥٠ أو٦٠ كم تقريباً. وقد عمد الرسول ﷺ إلى اتخاذ كل السبل ليُقنع أهل مكة بأنه جاء مُعتمراً، ولم يأت محارباً، ومع ذلك فقد رفَضوا تركه ومن معه من المسلمين يعتمرون، ويدخلون المسجد الحرام، إلا أنّ الرسول ﷺ حافظ على الصبر، والأخذ بأسباب السلام ما أمكن.

لقد اضطر الرسول ﷺ إلى التوقف في الحديبية وأمر أصحابه بالتوقف، على الرغم من إيمانه بنفسه وشجاعة أصحابه. كان يعلم أنه لو التجأ إلى الله تعالى وتوكّل عليه وقاتلهم فسيَغلبهم، غير أنه لم يفعل ذلك وفضّل الانتظار. وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تبايع مع أصحابه.. تبايع على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام، هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سماوات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: ١٨-١٩).

والحقيقة أن قرَيشاً التي كانت تظهر أنها تملك الكعبة اضطرت إلى قبول الأمر الواقع في معاهدة الصلح التي وقعت عليها كما وقع عليها الرسول ﷺ، إذ قالت للرسول ﷺ: «وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا الكعبة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا


السيف الشريف للرسول ﷺ / متحف طوب قابي - إسطنبول

عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القِـرَب لا تدخـلها بغيرها»، ومعنى هذا أن المسلمين شركاء في الكعبة أيضاً، وأن لهم ديناً حنيفاً على ملّة إبراهيم، بينما كان المفهوم السائد حتى آنـذاك أن مكة والكعبة ملك للمشـركين، وما كان لأحـد أن يضـع شـعائر خاصة ومختلفة، بينما كـان مـن ضمن شروط معاهدة الحديبية حرية المسلمين في أداء الحج والطواف حول الكعبة بشعائرهم الخاصة بهم.(1)

وبعد مفاوضات ظهرت فيها إساءات من رسل قريش، وآخرهم سهيل بن عمرو، وغضب لها أصحاب النبي ﷺ، وتغاضى عنها الرسول ﷺ إيثاراً للسلام على الحرب، وقعت اتفاقية الهدنة والسلام لمدة عشر سنوات بين الطرفين. وسرعان ما تبين للمسلمين أن إيثار الرسول للسلام كان خيراً وبركة وفتحاً مبيناً.

لقد كان المفاوض من قِبل قريش «سُهيل بن عمرو» يَعُدّ كل تنازل يقتطعه من المسلمين نصراً كبيراً له، لذا فإنه كان يعترض حتى على أصغر المسائل؛ فمثلاً عندما دعا الرسول ﷺ عليّاً رضي الله عنه ليكتب معاهدة الصلح مع قريش، قال له: «اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)» فقال سهيل: «اكتب: باسمك اللهم» فكتبها، ثم قال ﷺ اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأشار الرسول ﷺ لعليّ رضي الله عنه أن يمحو كلمة «رسول الله» التي كان قد كتَبها، وتردّدَ عليّ رضي الله عنه، إذ صعب عليه محو كلمة «رسول الله» فقام النبي ﷺ بمحو تلك الكلمة بنفسه بعد أن دلّه على مكانها عليّ، وقال: «اكتب؛ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذنِ وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرده عليه».

وقد قبل النبي ﷺ هذا الشرط الجائر لحكمة رآها على الرغم من تبرّم بعض الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهكذا يرينا صلح الحديبية بملابساته وشروطه المدى الذي وصل إليه إلحاح الرسول ﷺ على طلب السلام؛ لأن ظروف الأمن والسلام هي المناخ الملائم لدعوة الإسلام التي يراد لها الدخول إلى القلوب والعقول. ومن البديهي أن مناخ الحرب والقتال لا مكان فيه لتفتح العقول والقلوب على الحق، ولا على الحوار الإيجابي. وكما أثبت التاريخ، فقد كان هذا الصلح على ما فيه من إجحاف فتحاً مبيناً، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ (الفتح: ١).

فتح مكة

أما فتح مكة في الثالث والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، فهو الآية العظمى على مدى الأخلاقية النبوية الإنسانية التي التزم بها الرسول ﷺ مقدماً أرفع نموذج للتسامح والتواضع والسموّ الذي عرفته البشرية عبر تاريخها.

إننا لا يَعنينا هنا رصد تطور الأحداث بعد الحديبية، فموضع ذلك هو الدرس التاريخي وكتب الحديث والسيرة، لكن الذي يعنينا هنا هو الوقوف عند الخُلق الحربي الذي طبّقه النبيّ الفاتحُ لبلده مكة، مع التذكير -في البداية- بكل ما عاناه الرسول من أهل مكة خلال أكثر من عشرين عاماً، منها ثلاثة عشر أمضاها هو وصحابته تحت مِطرقة التعذيب والأذى والتشرد في الأرض بحثاً عن ملجأ آمن. وعندما هاجر لُوحق ورُصدتْ الأموال الطائلة لمن يغتاله، بعد أن فشلت مؤامرة قتله في داخل مكة... ثم -أخيراً- الأعوام الثمانية التي قضاها الرسول في مكة، وهم يلاحقونه ويتربصون بكل أصحابه، ولا تمرّ الأيام أو الأسابيع إلا وهم متآمرون عليه مع اليهود أو المنافقين، أو مُوعِزون لبعض القبائل بترويعه في المدينة والسطو على مسارح المسلمين التي تسرح فيها دوابهم، أو مقاتلون له مباشرة طوراً ثالثاً.

وها هي السنوات الطوال قد مضت، وها هو أنبل الناس وأزكى الناس، الذي حورب واضطهد يعود فاتحاً لبلده. أجل، بلده مكة التي أُخرج منها وهو يذرف الدمع ويقول: «والله إنك لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ».

إنها ذكريات أليمة كل الألم، بشعة كل البشاعة. وإن أفضل الناس في مواجهتها هو الذي يلتزم «العدل» -على الأكثر- فيقتص لنفسه ولأصحابه، ويستردّ ما اغتصب منه ومنهم، وهو كثير، ويطلب التعويض الكافي عن الاغتراب والملاحقة طيلة هذه المدة الطويلة.

ولعلّ أقل ما يُقبل ويغتفر لهذا الفاضل أن يَدخل بلدَه شامخاً رافعاً رأسه معتزاً بمجده الذي وصل إليه، وبحقه الذي انتزعه. لكن الرسول الأخلاقي الذي وصفه ربُّه بالخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، لم يكن مثل أفضل الناس؛ بلَ إنه لولا بشريته التي نؤمن بها، وعبوديته التي كان يعدّها وِسامه الأرفع.. لولا البشرية والعبودية لقلنا: إنه لم يكن من الناس، وهو يدخل مكة... لقد كان ملاكاً طاهراً ارتفع عن أكبر مدى تستطيع أن ترنو إليه البشرية أو أن تطمح في الوصول إليه.

ونظر إلى آلاف الوجوه التي فعلت به الأفاعيل طيلة عقدين من الزمان، بعد أن دخل مكة من أعلاها، من كداء، وهو يضع رأسه -وهو راكب- على دابته، تكاد تلامس رأسه ظهر الدابة تخشّعاً وخضوعاً لله، وإقراراً بأنه صاحب الفضل في تدويل الأيام، وفي إعزاز الأذلاّء. ولقد كانت رأسه تلمس واسطة الرحل من شدّة الانحناء وهو -مع ذلك- مشغول عن نفسه، وعن أية نظرات ترقبه وهو داخل دخول النبي المنتصر، وليس دخول «الملك» كما قال أبو سفيان للعباس رضي الله عنه: لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيماً.. فصحّح له العباس رضي الله عنه، وقال له: إنها النبوّة..

إنه ﷺ مشغول عن الناس بقراءة سورة الفتح، بينما يخفق قلبه بأروع المشاعر؛ لأنه في طريقه إلى المسجد الحرام والكعبة، وقد فعل ما أراد، واستلم الحجر الأسود، طاف بالبيت، ولم يكن محرماً ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ (الإسراء/٨١)، ثم دخل إلى جوف الكعبة، فأزال آثار الوثنية في داخلها كما أزالها من خارجها، ثم دار في البيت يُوحّد الله ويكبره. وكل ذلك، وهم ينظرون إليه، إنهم في وادٍ بعيد عنه، إنه في الآخرة، في الملأ الأعلى، أما هم فيفكرون هلِعين فيما ينتظرهم، متذكرين ماضيهم الأسود معه.

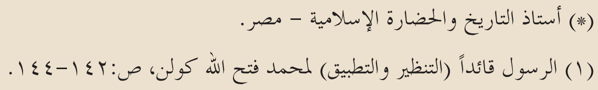
ونظر إليهم... وهم ينتظرون القضاء العادل... لكنهم مع ذلك كانوا يعرفون أن محمداً هو محمد رسول الرحمة. إنه لن يعاملهم بالعدل. فلو عاملهم بالعدل لانتهى كل شيء. ثم فاجأهم النبيّ الأعظم بالسؤال: «يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟» وكأنما كان السؤال نفسه طوق نجاة لهم. فسرعان ما أجابوه قائلين: «خيراً... أخ كريم، وابن أخ كريم.» قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (يوسف: ٩٢) اذهبوا فأنتم الطلقاء».

لقد وُلدوا من جديد، ودبت في أوصالهم الحياة، وما كانوا يتخيلون أن يَنقَذوا -هكذا- في دقيقة واحدة، وبعبارة واحدة، «اذهبوا، فأنتم الطُّلقاء». لكنه سموّ محمد ﷺ في حربه.. سموه في عفوه.. سموه في إكرام من ظلموه.. وفي تأليف قلوبهم. فإن أكبر ما يهمه كنبي أعظم أن يدخل إلى قلوبهم، إنه لا يريد الطاعة كملك وإنما يريد الطاعة مع الحبّ كنبيّ بعثه الله رحمة للعالمين، وقد تحقق له ما أراد.

ثم تتوالى آيات عظمته، فيرفض أن يأخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة ويعطيها للعباس رضي الله عنه أو لعليّ رضي الله عنه (بعض بني هاشم قومه)، وقال: «اليوم يوم برّ ووفاء». فالنبي الأعظم لا يعرف الانتقام.

وعندما كانت الجيوش الإسلامية تزحف على مكة في ظل أوامر صارمة بعدم إراقة الدماء إلا في الدفاع عن النفس أخطأ أحد القادة -وهو الرجل العظيم سعد بن عبادة- فقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم يذلّ الله قريشاً. فانتُزعت منه الراية بأمر الرسول وأعطيت لابنه قيس وصَحح الرسول ﷺ العبارة حتى لا تذهب إلى الناس وتروّعهم قائلاً: «اليوم يوم المرحمة... اليوم يُعزّ الله قريشاً..». وقد صدق... فلولاه ولولا دخول مكة في الإسلام لما كانت لمكة قيمة، ولَما كان لقريش قيمة أبداً.

السيف الشريف للرسول ﷺ
متحف طوب قابي - إسطنبول



(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية - مصر.

(١) الرسول قائداً (التنظير والتطبيق) لمحمد فتح الله كولن، ص:١٤٢-١٤٤.

من صحراء نجد نحو المدينة المنورة

محمد عاكف *

... وبينا أنا في الدعاء، إذا بصوت يجلجل ويصعد:

«يا رسول الله!».. أطلقَه لوعةً طيفٌ أسود،

وقَف على الأعتاب وأمسك بالستارة طيّاتٍ وأكواماً،

ثم تهاوى أمام «باب السلام»، فلم يطق قياماً،

وما زالت جلجلة صيحته في الفضاء البعيد،

حتى علا خارقاً الأبعادَ صوتُه من جديد.

وحين خَرَّ على أقدام روضة النبي صريعًا،

حَضَنَ حديدَ الحاجز المرتطم بصدره منيعًا،

وهمد مستغرقاً إزاء وجه الحبيب الغالي،

قائلاً في نشيج: «يا نبيُّ انظر إلى حالي!

كما يتلَظّى صدرُ الصحراء في هجير الظهر،

كذلك تلظّتْ روحي في جوى الهجر.

وما سكن قطُّ تَشَوُّفي إلى حرمك الطاهر، بروحي وبدَني،

ولكن تصدى لي أعواماً طويلةً موانعُ أهلي ووطني،

قالوا: «اصبر»، فقلت: «هل الصبرُ دهرٌ»؟

فلا بد من نهايةٍ ومهما يَطُل الصبر.

وذِكْرُ هذا التراب غدا ناراً مُتّقِداً في عيني، يَشويني كلّ آنٍ،

فما عاد يصُدُّني من بَعدُ عوائقُ الأهلِ والأوطان...

فاجتزتُ ديار السودان، وألقيتُ بالعوائق وراء ظهري ودُوني،

وقضيتُ ثلاثة أشهر في المسير، فيا «تِهامة» تَقطَّعي وهُوني.

ولولا أنْ أَدْرَكتَني يا رسول الله مَدَداً،

لاحترقتُ حتى نخاعي في الصحراء، وصرتُ بدداً؛

فأَنفاسك مسّت الرمال فغدت نسيمًا عليلاً،

وصوتك سال في كل وادٍ ماءً سلسبيلاً،

وما أن صارتْ إرادتك لِما أُريدُ مقصدًا ومراماً،

حتى غدا الهمودُ لحظةً في الدروب عليّ حراماً.

سَرَدْتُ على الخلائق طُرّاً الشَّجْوَ والأحوال،

وسكبتُ على الليالي أشجاني وأنْطَقتُ الجبال...

مضت شهورٌ لم تَغْمُض لي -في حرقتي- عَينٌ،

واسْأَلِ النجومَ إن شئتَ هل عرف النومَ لي جفنٌ؟

ثلاثةٌ وخمسون عاماً وأنا في عذاب الفراق هائم،

ثم يصدم جبهتي حائلاً هذا الستارُ الظالم؟!

هذي القلوب خلّفت فلذات أكبادٍ ضائقةَ الصدر،

هل من حقها الرحمةُ؟ أم أنْ تُجازى بالخُسر؟

فارفع عن مَزارك الطاهرِ حديدَ النقاب،

ولا تمنع روحي العليلَ من هذا التراب!

وما هذه الشعلة الوضّاءة؟ أهي نورك يا رسول الله؟»

ثم مرّ آنٌ في سكونٍ، ثم شَهقةُ «آه»..

ماذا أرى؟ امتد على الأرض هذا السوداني...

ويبكيه بدمعٍ ذارفٍ مسكينٌ سَيلاني...

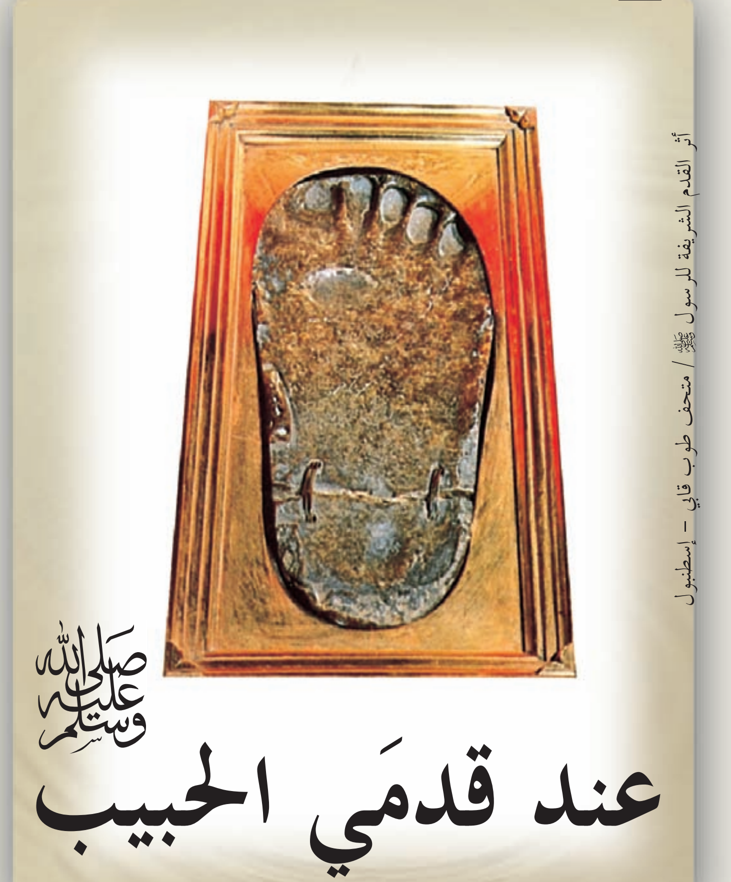
ويُسْدِلُ بيده جفْنَ عينيه، ويُقبّلُّه، ويُقَبِّلُ...

ثم نُقِل جثمانُه إلى حيث يُكفّن ويُغسّل...

ثم إلى «البقيع» رحل الشهيد ببدنه الفاني...

لكن روحه الخالدة بقيت في «الحرم»، لا تحيد عن هذا المكان.

(*) من أكبر شعراء الأدب التركي المعاصر. وقصيدته هذه عروضية وطويلة في أصلها. والقسم المنشور هنا من أواخر القصيدة، يُصور فيها مشاعره حيال شوق رجلٍ سودانيٍّ رآه، تحَمَّل المشاق للوصول إلى المسجد النبوي وزيارة قبره ﷺ، ثم توفاه الله تعالى حين الوصل. الترجمة عن التركَية: عوني عمر لطفي أوغلو.



أثر القدم الشريفة للرسول ﷺ / متحف طوب قابي - إسطنبول

عند قدَمي الحبيب ﷺ

أديب إبراهيم الدباغ *

أَسناءُ الشّوق تتعالى من قلبي لتعانق سماءَ محمد ﷺ... وفيضُ الحنين الذي يملأ روحي سلالِمُ ضوء تأخذني نحو آفاق روح محمد ﷺ. وخيالُ فؤادي العميد سحابة نور تَحملني إلى قِمَم الصفاء حيث ألتقي سماوات محمد ﷺ وأحتويها في صدري وأَضُمُّ عليها حنايا روحي، فإذا أنا مرتفع على الوجود كُله بموضعي من قدمَي محمد ﷺ... وإذا بالروح المحمديّ العظيم يتمثل لي نوراً ساطعاً كأسياف الفجر، يشقُّ سُدفة القلب المظلم، ويَسطع في جنبات النفس كشهاب يتلهّب، خارقاً هشيم الضعف البشري، عاصفاً بخَوَرِ الروح، صاهراً قيودَ النفس المكبّلة بأغلال رَغائبها، باعثاً الحماس في الذات المنسحقة تحت وطأة همومها، ومَضَضِ أفكارها، وقد سكب في أُذُن روحي هذا النشيد الهادر، وهذا الهُتاف الذي يُذكي نضال الروح، ويُؤجّج كفاح القلب من أجل انعتاقه من قبضة الظلام، وتَحرره من عبوديات الزمن، وهذا هو الهتاف الذي وَعَتْهُ روحي، وهتف به لساني:

أبداً أردتكم يا أحبّاء قلبي أحراراً طلقاء من كل قيد، لا يستعبدكم إنسان، ولا يكبلكم فكر، ولا تستذلكم طواغيت الأرض؛ لأنكم أنتم الوعي العالي للإنسانية، والروح الأمين القوّام على عوالم فكرها وروحها وقلبها.

فقد تساميتُ بكم فوق عبوديات المكان والزمان، ورفعتكم فوق حتميات التاريخ، لترصدوا من آفاقكم العالية تحولات الإنسان وتصححوها، وتراقبوا صيرورات الزمن وتوجهوها، وتخططوا لمسيرة البشرية، وتقودوا مسار الحضارات عبرَ العصور والأزمان، فأنتم -لو عرفتم أنفسكم كما أردتكم وأرادكم الله- أقوى من كُلِّ تيار، وأسمى من كل فكر، وأعظمُ من كل حضارة.

ولكنكم اليوم تتوارون خارج الزمن، وتقبعون في زوايا النسيان، وتتفيأون ظلال الموت، وكأني لم أفجّر في قلوبكم يوماً عِزَّ العبودية لله، ولم ألهب في دمائكم وهج السمُوِّ والارتفاع، ولم أَحمِلْ إليكم يوماً السماء بكل أنوارها وأشواقها ورحمتها لتكون نافذتكم في جدار الوجود، والقِمَّة التي تراقبون منها انسياب نور الإيمان، ودبيب ظَلام الكفر على أرض العالم.

أوّاه -يا أشقّاء قلبي- لقد لامس نواح أرواحكم المدحورة في معارك الضمير مصاريع أبواب السماء، ورَشَّتْ دماء قتلاكم في معارك الروح أجنحة الملائكة، وأنا رسولكم -محمد بن عبد الله- خسرتُ بعض معاركي، وذقتُ مرارة الانكفاء والانحسار، ولكني أبداً لم أعرف خَوَرَ الروح وانسحاق النفس، وأبداً لم تنطفئ شعلة الجهاد في قلبي.

وعندما نتفيأ ظلال النصر تحت غابة من سَنا سيوفنا المشرّعة بالحق من أجل حماية الإنسان الربّاني المَتفوّق، حلم الأجيال، وشوق خيال البشرية، فلتُزَمْجر إذن في ذواتكم أُسُود التحدي لأقفاص العالم، ولتستعر نفوسكم بأقباس من روح «بلال» إمام المتحدِّين، وسيّد الرافضين، الذي كان إذا تنفس أحرق بأنفاسه اللاهبة كل ما وضعته أباطيل العالم من قيود للروح والفكر والوجدان، والذي أشعل بنار «أَحَد.. أَحَد» كل ركامات البشرية من أوهام الدهور، وخرافات السنين والأحقاب، وأضاء بنور «أَحَد... أَحَد» جوانب الإخاء الإنساني المطمور تحت



البردة النبوية الشريفة التي أهداها الرسول ﷺ إلى كعب ابن زهير رضي الله عنه / متحف طوب قابي – إسطنبول

رماد من فوارق المال والجنس والسلطان بين بني الإنسان.

أيُّ طاقات هائلة تكمن في نفوسكم يا أتباع رسالتي، وأيُّ قوىً عظيمة تختفي في طيّات ذواتكم، وأيُّ بحار وَضَّاءة من الإدراك الروحي قد هدأتْ أعماقُها في أعماقكم وهي تنتظر مَنْ يهيجها بعواصف روحه، ويُحركها بقاصف من رعود سمائه.

لقد أودعتكم أثمن كنوزي، وصَبَبْتُ في أرواحكم مُذابَ روحي، وسكبتُ في قلوبكم معصور قلبي، وأضواء فكري، وأورثْتُكم حياتي، نبعاً إنسانياً فيّاضاً ترفده ينابيع السماء، وتمازجه أنوار الوحي، لتكون سلّماً للطامحين إلى السموِّ وقمَّةً للمتشوقين إلى القمم، ومناراً للتائهين في بحار ظلمات الحياة.

حَطِّموا زِنزانات نفوسكم.. اهدموا جُدران أرواحكم.. سَرِّحوا ضمائركم من قيودها، وارتفعوا بها طليقة من كل ما يُخْلِدها إلى الأرض ويَدُّسُها في التراب، لتتعالى في سماء الله حيثُ مَغاصُ الحرية، وسلالم الانعتاق من كل عبوديات الأرض.

يا أمتي، يا خير أمة أُخرجت للناس! إنَّ دموعكم تتساقط في قلبي، وأشجانكم تَهزُّ عوالم غبطتي، وليالي عذابكم تُدمي سماوات أفراحي. فَمَن غيرُ القرآن يكفكف دمعكم، ويغسل جراحاتكم، ويمسح عذاب أيامكم، ويفتح كوى النور في جدران وجودكم؟!

لا تَفزعوا من تبعات وجودكم، ولا تَخافوا من أفكار قلوبكم، فإن القلب المفكر أجدى على البشرية من ألف عقل مُظلم لا ينفث إلا غِسلين حُمقه وشكّه وظلماته.

لا تُشفقوا –يا صِحاب الإيمان– من أثقال كلمة «لا إله إلا الله» فإنّها الكلمة التي أذن لها الله أن تكون العقل لجنون كل قلب، والفكر لاضطراب كل نفس، والمحرك الذي يدير محركات التحليق في أجنحة الإنسان، والمفتاح الذي يُفتحُ به كلُ بابٍ مغلق في الطبيعة والكون والحياة.

ألا هل بلغت...؟ اللهم فاشهد...

(*) كاتب وأديب – العراق.



الخاتم الشريف للرسول ﷺ

من آفاق الذات المحمدية

إحسان قاسم الصالحي *

إن جلّ اهتمام كتّاب السيرة النبويــة -جزاهم الله خيراً- قد تركَّز على كمال بشريّته ﷺ بجميع جوانبها المتنوعة طوال حياته المباركة. فهذه الوقائع الحياتية الكثيرة والمتعددة الجوانب التي سجّلها الصّحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين بأدقّ تفاصيلها، لا تمثل إلا جانباً يسيراً من كمال شخصيته المعنوية أو الروحية الذي لا يمكن لحوادث بشرية قليلة أن تعبّر عنه أو تعكسه على صفحة الوجود، فـ«أنّى لهذه الشخصية المباركة الذي كان كلٌّ من جبرائيل وميكائيل مرافقَين أمينَين[1] له في غزوة بدر أن تنحصر في حالة ظاهرية أو أن تُظهرها بجلاء حادثةٌ بشرية».[2] ذلك لأنه تضاف يومياً، بل حتى الآن، وفي كل دقيقة منه، إلى صحيفة كمالاته ﷺ أثوبةٌ عظيمة وعبادةٌ خالصة بقدر ما يغنمه كل مؤمن من أمته بأكملها. وذلك في ضوء «من دلّ على الخير فله مثل أجر فاعله».[3] وكما ينال ﷺ بما وهبه الله من استعداد غير متناه نفحاتِ الرحمة الإلهية غير المتناهية بشكل غير متناه وبقدرة غير متناهية، كذلك ينال يومياً دعاءً غير محدود ممن لا يُحدّ من أمته.

لذا ففي الوقت الذي نفكّر في حياته البشرية أو نسمع معجزاته الباهرة، يلزم أن نرفع عينَ الخيال عالياً ونتصوّر هذا النبي الكريم ﷺ الذي هو أنبلُ نتائج الكائنات وأكملُ ثمراتها والمبلِّغ عن خالق الكون، وحبيبُ رب العالمين وممثل الإنسانية وإمام المخلوقات جميعا، وهو يعرج السماوات العُلا ويطوف في أرجاء الملكوت. فيطلعه سبحانه وتعالى على الآيات الكبرى والآثار الجليلة واحدةً تلو الأخرى وقد «عَلا به البُراق وقطع به المراتبَ كالبرق من دائرةٍ إلى دائرة، ومن منـــزلٍ إلى منـــزل، كمنازل القمر، ليُريَه ربوبيةَ أُلوهيته في السماوات، ويلتقي إخوانه الأنبياء فرداً فرداً، كلاًّ في مقامه في تلك السماوات، حتى عَرج به إلى مقام ﴿قَاب قَوْسَيْن﴾، فشرّفَه بالأحدية، بكلامه وبرؤيته؛ ليجعل ذلك العبدَ عبداً جامعاً لجميع الكمالات الإنسانية، نائلاً جميعَ التجليات الإلهية، شاهداً على جميع طبقات الكائنات، داعياً إلى سلطان الربوبية، مبلّغاً للمرضيات الإلهية، كشّافاً لطلسم الكائنات».[4]

نعم، إنه حبيب رب العالمين، فهو الذي أراه جميع أنواع تجلي محبته المبثوثة في جميع الموجودات.. فاصطفاه -وهو ثمرةٌ منوّرةٌ من شجرة الخلق- بالمعراج مُظهراً محبوبيته أمام الكائنات قاطبة «فرقاه إلى حضوره، وشرّفه برؤية جماله، وأكرَمه بأمره، وأناط به وظيفةً جعل ما عنده من حكمةٍ قدسية تسري إلى الآخرين».[5]

وبهذه النظرة الصائبة التي تتخذ من أحوال الرسول ﷺ البشرية وصفاته الإنسانية أساساً ومَدخلاً للتعرف على ذاته الحقيقية وشخصيته الروحية النورانية ينجو الإنسان من النظرة القاصرة إليه ﷺ. فلولاه لظلَّ الإنسان بل الكون كله هملاً ضائعاً سَقَطاً لا يلتفت إليه أحد، ولا يثير اهتمام أحد، ولظلَّ هذا المخلوق المكرم عائماً فوق سطحية نفسه الخاوية، وجدب روحه، وقَفْر عقله. فهو ﷺ الذي أثار قوى الإنسان الخفية، وأعانه على اكتشاف نفسه، والعثور على جوهر إنسانيته.

وهو الذي وَسَّعَ من أفق تفكيره، وعلَّمه كيف يكون كونيَّ التفكير، يشارك الكون في أفكاره باعتباره جزءً لا يتجزأ منه، ويغوص في خفايا الوجود بعقل قوي وإرادة حيوية متأججة. وقد استطاع ﷺ أن يجعل الانتشاء العقلي والروحي الإيماني هو الانتشاء الأقوى والأعمّ والأهمّ على كل الانتشاءات الجسدية

والعاطفية التي كان الانسان غارقاً فيها من أخمص قدميه حتى قمة رأسه.

كيف السبيل لمعرفة شخصيته ﷺ الحقيقية؟

ولكن كيف يمكن لأذهاننا أن تستوعب هذه الشخصية العظيمة التي تُعطي للكون معنى ومغزى؟ نرى الأستاذ النورسي يأخذ بأيدينا في سياحة قلبية لرؤية ملامح هذه الشخصية فيقول:

«هو الذي لعظمته المعنوية صار سطحُ الأَرض مسجدَه، ومكةُ محرابَه، والمدينة منبرَه؛ وهو إمام جميع المؤمنين يأتمّون به صافّين خَلْفَه.. وخطيب جميع البشر يبيّن لهم دساتير سعاداتهم.. ورئيس جميع الأَنبياء يزكّيهم ويصدّقهم بجامعية دينه لأَساسات أَديانهم.. وسيد جميع الأَولياء يُرشدهم ويُربّيهم بشمس رسالته.. وقطبٌ في مركز دائرة حلقة ذكرٍ تركّبَت من الأَنبياء والأَخيار والصديقين والأَبرار المتّفقين على كلمته الناطقين بها.. وشجرةٌ نورانية عروقُها الحيوية المتينة هي الأَنبياء بأَساساتهم السماوية، وأَغصانها الخَضرة الطرية وثمراتها اللطيفة النيّرة هم الأَولياء بمعارفهم الإلهامية. فما من دعوًى يدّعيها إلاّ ويشهدُ له جميعُ الأَنبياء مستندين بمعجزاتهم، وجميعُ الأَولياء مستندين بكراماتهم؛ فكأَنَّ على كل دعوىً من دعاويه خواتمُ جميع الكاملين، إذ بينما تراه قال: «لا إلــه إلاّ الله» وادّعى التوحيد، فإذا بنا نسمع من الماضي والمستقبل من الصفَّين النورانيين -أَيْ شموس البشر ونجومها القاعدين في دائرة الذِّكر- عينَ تلك الكلمة، فيكررونها ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم. فكأَنَّهم يقولون بالإجماع: «صَدَقت وبالحق نطقتَ». فأنّى لوهمٍ أَنْ يَمدَّ يده لردّ دعوىً تأَيّدتْ بشهادات مَنْ لا يُحَدّ من الشاهدين الذين تزكّيهم معجزاتُهم وكراماتُهم».[٦]

محمد ﷺ والكون

إن الأستاذ النُّورْسي يربط سيرة الرسول العطرة وحياته المادية والمعنوية بالكون كله وبالحياة بأجمعها وكيف أنه ﷺ هو معنى الوجود إذ يقول: «نعم، كما أن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها؛ والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور؛ والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة.. كذلك الحياة المحمدية -المادية والمعنوية- مترشحة من الحياة ومن روح الكون، فهي خلاصة خلاصتها؛ والرسالة المحمدية مترشحة من حسّ الكون وشعورهِ وعقلِه، فهي أصفى خلاصته؛ بل إن حياة محمد ﷺ -المادية والمعنوية- بشهادة آثارها حياة لحياة الكون؛ والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له؛ والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. أجل... أجل... أجل».[٧]

إنه ﷺ معنى الوجود

نعم، إن نوره ﷺ هو الذي يفصح عن معنى الوجود ومغزى كل حادث. فلولاه لظل كتاب الكون الرائع هذا بلا معنى ولا مغزى.

أجل، إن فخر الكائنات وخاتم الرسل ﷺ هو أساس الوجود وخلاصته وخميرته، فليس هناك موضع في الكون يخلو من حقيقة نوره. فمثَله كمثل نواة بذرة شجرة باسقة تضم كل خصائص تلك الشجرة. فنوره أساس للوجود كله، ألا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩) واستسلمت الأرض والسماوات كلها له سبحانه ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١) أليس الرسول الكريم ﷺ يمثل الإسلام أصدق تمثيل؟! فهو الإسلام بعينه، وهو القرآن الحي الناطق، كما وصفته أمنا عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن أخلاقه ﷺ: «كان خلقه القرآن».[٨] وأثنى عليه الرب الكريم ثناء لا يليق إلاّ به: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ومن هنا نرى أن الأستاذ النورسي عندما يصف نور محمد ﷺ بأنه الإسلام بعينه وحقيقة الوجود بعينها، يقول: «اعلمْ أنه بينما ترى العالم كتاباً كبيراً ترى نور محمد عليه الصلاة والسلام مداد قلم الكاتب.. وبينما ترى العالَم يلبس صورةَ الشجرة ترى نورَه عليه الصلاة والسلام نواتها أولاً، وثمرتها ثانياً.. وبينما ترى العالم تحوّل إنساناً كبيراً ترى نوره عليه الصلاة والسلام عقله.. وبينما ترى العالم حديقةً مزهرةً ترى نوره عليه الصلاة والسلام عندليبه.. وبينما ترى العالم قصراً مزيَّناً عالياً ذا سرادقات تتظاهر فيها شعشعة سلطنة سلطان الأزل وخوارق حشمته، ومحاسن تجليات جماله، ونقوش خوارق صنعته، إذن ترى نوره عليه الصلاة والسلام نظّاراً يرى لنفسه أولاً، ثم ينادي بـيا أيها الناس تعالَوا إلى هذه المناظر النـزيهة، وحَيهلوا[٩] على ما لَكُم فيه شيء من المحبة والحيرة والتنـزه والتقدير، والتنور والتفكر وما لا يحد من المطالب العالية. ويريها الناس، ويشاهِد ويشهَد لهم.. يتحير ويُحيِّرهم..

يُحب ويُحبّبُ مالكَه إليهم.. يستضيء ويُضيء لهم.. يستفيض ويفيض عليهم».(١٠)

معجزة المعجزات

أترانا قلنا شيئا عن هذا النبي الحبيب ﷺ الذي هو كالشمس يدل على ذاته بذاته، إذ قد «أجمعت الأمة -حتى الأعداء- على أنه جامعٌ لجميع الخصال الحميدة، بل اشتهر حتى قبل البعثة النبوية بـ«محمد الأمين» لكمال أخلاقه، وقد ثبت بالتواتر المعنوي القاطع وبإجماع الأمة: أنه أجملُ الناس صورةً، وأحسنُهم سيرةً، وألطفُهم حلماً، وأزيدُهم شكراً، وأشـدُّهم تواضعاً، وأصبرُهم، وأزهـدُهـم، وأعفّهم، وأجودُهـم، وأكـرمُهم، وأرحمُهم، وأعدلُهم، وأكثرهم مروءةً ووقاراً، وأفضلُهم صَفحاً وسَداداً وأزيدُهم شفقةً على الخلق... فهو أكملُ خلاصةٍ نورانية لهذه السجايا العالية والخصال السامية وأمثالها كلها.

ونقطة الإعجاز في هذه الخصال هي: أنه على الرغم من أن الأخلاق الحميدة لا تتخالف ولا تتباين فيما بينها، فإنها تتزاحم في درجة الكمال، فلو تفوقت إحداها ضعفت الأخرى.

فاجتماعُ كمالِ الحلم مع كمالِ الشجاعة، وكمالِ التواضع مع كمالِ الشهامة، وكمالِ العدالة مع كمالِ المروءة والرحمة، ومنتهى الاقتصاد والاعتدال مع منتهى الكرم والسـخاء، وغاية الوقار مع منتهى الحياء، وغايةِ الرأفة مع منتهى البغض في الله، وغاية العفو والصفح مع منتهى العزة بالنفس، وغاية التوكل مع منتهى الاجتهاد والسعي... فاجتماعُ أمثال هذه الأخلاق الراقية المتزاحمة في شـخص واحد، كلٌّ في ذروتها، دفعةً واحدة، وانكشافها من دون تدافع و تزاحم هو معجزة المعجزات».(١١)

نعم، ليس لنا أن نقول إلا كما قال الشاعر العظيم:

ما إن مدحتُ مُحمداً بمقالتي

لكنْ مدحت مقالتي بمحمدٍ

ونختم هـذا الكلام المقتضب بالصلاة والسلام على ذلك الحبيب المحبوب، ذي المعجزات بصلوات وسـلام تشير إلى قسم من معجزاته: على من أُنـزل عليه القرآن الحكيم من الرحمن الرحيم من العرش العظيم. على سيدنا محمد أَلفُ ألف صلاةٍ وسلام بعدد أنفاس أُمّته. على مَن بشّر برسالته التوراةَ



القدح الشريف للرسول ﷺ / متحف طوب قابي - إسطنبول

والإنجيل والزبور والزبر. وبشّر بنبوّته الإرهاصات وهواتف الجن وكواهن البشر وانشقَّ بإشارته القمر.. سيدنا محمد أَلفُ ألفِ صلاة وسلام بعدد حسنات أُمته. على من جاءت لدعوته الشَجرُ، ونـزل سرعةً بدعائه المطر، وأظلّته الغمامة من الحر، وشبع من صاع من طعامه مئاتٌ من البشر، ونبع الماء من بين أصابعه ثلاث مرات كالكوثر، وأَنطقَ اللهُ لـه الضبَّ والظبي والذئب والجـذع والـذراع والجمل والجبل والحجر والمدر والشجر.. صاحب المعراج وما زاغ البصر.. سيدنا وشفيعنا محمد أَلفُ أَلف صلاة وسلام بعدد كل الحروف المتشكلة في الكلمات المتمثلة بإذن الرحمن في مرايا تموجات الهواء عند قراءة كل كلمة من القرآن من كل قارئ من أَول النـزول إلى آخر الزمان، واغفر لنا وارحمنا يا إلهنا بكل صلاة منها.. آمين.»(١٢)

(*) مترجم «كليات رسائل النور» إلى العربية ومدير مركز رسائل النور - تركيا.

الهوامش:

(١) انظر: البخاري (٥/ ١٠٣) باب شهود الملائكة بدراً.
(٢) المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ١٢٣.
(٣) مسلم، الإمارة ١٣٣؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٣٩٩/١.
(٤) الكلمات للنورسي، ص ٦٧٢.
(٥) الكلمات للنورسي، ص ٦٨٥.
(٦) الكلمات للنورسي، ص ٢٥٥
(٧) الكلمات للنورسي، ص ١١٩
(٨) جزء من حديث عائشة رضي الله عنها. أخرجه مسلم ٧٤٦ واحمد ٥٤/٦، ٩١، ١٦٣ وأبو داود ١٣٤٢ والنسائي ١٩٩/٣ .
(٩) حيهلوا : اسم فعل بمعنى أقبلوا وعجّلوا وهلمّوا.
(١٠) المثنوي العربي النوري ص ٢١٩.
(١١) شعاعات معرفة النبي ﷺ.
(١٢) الكلمات للنورسي، ص ٢٦٣.



«إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصّب، قد رسموا لدين محمد [ﷺ] صورةً قاتمةً، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبةً خارقةً، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يسمّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم، لوفّق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمّن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها.»

برناردشو، عن كتابه «محمد»



السيرة النبوية مشروعاً حضاريّاً

أ. د. عماد الدين خليل *

١. النظرة التجزيئية إلى السيرة

إلى عهد ليس ببعيد –ربما يكون منتصفَ القرن الماضي– كانت البحوث والدراسات والمصنفات المعنية بسيرة رسول الله ﷺ وعصر الرسالة تنحو –في معظمها– منحى تقليديا يرمي بثقله في اتجاه المعارك والغزوات والشمائل، وقد يعالج المفردات الدعوية والتشريعية والسلوكية منفصلة عن سياقها العضوي العام. لكنه لم يكد يلتفت إلى البعد الحضاري لهذا العصر الذي أقام دولة كبرى، ونسج تشريعا خصبا، وهيأ الشروط لقيام حضارة متميزة.

ثم إن معظم الباحثين سحَبوا رؤيتهم التجزيئية في تعاملهم مع العصر إلى صيَغ التعامل مع «المصادر» التي استقَوا منها مادتهم التاريخية؛ فلم يحاولوا –إلا في القليل النادر– أن يكسروا الفواصل بين أنماط تلك المصادر، وأن يستدعوا كل تلك الأنماط من أجل وضع أيديهم على الصورة الأكثر مقاربة لسيرة رسول الله ﷺ وعصر الرسالة: القرآن الكريم وتفاسيره، الحديث النبوي الشريف، كتب الأدب ودواوين الشعر، كتب الفقه، كتب الجغرافيا والرحلات؛ فضلا عن كتب التاريخ في أنماطها كافة: السيرة، التاريخ العام، التاريخ المحلي، تواريخ المدن، التراجم، الأنساب والطبقات.

هذا إلى أنهم التزموا الخط الزمني لوقائع السيرة، فكانوا يتحدثون عن وقائع كل سنة مُجتزأةً عن وحدتها الموضوعية، أسوة بما كان الأجداد يفعلونه فيما يُسمّى بالحَوليات. وكان هذا يمارس تقطيعا للوقائع الأساسية، واختراقا لنسيجها بوقائع أخرى تتحرك في سياق مغاير، كأن يتم الحديث في السَّنة أو الحولية الواحدة عن الصراع ضد الوثنية واليهود والبيزنطيين والمنافقين، جنبا إلى جنب مع المعطيات التشريعية أو الدعوية أو التعبدية أو السلوكية...الخ.

كما أن الرؤية النقدية كادت أن تغيب عن تلك الأعمال؛ فكان أصحابها يسلمون بالغث والسمين، ما يمكن قبوله وما لا يمكن.. الأمر الذي أضاف إلى وقائع السيرة الأساسية أجساما غريبة، وقادها إلى نوع من التضخّم على حساب بنيتها الأصيلة المتَّفق عليها.

٢. المنهج الأكاديمي والسيرة

ولحسن الحظ بدأ النصف الثاني من القرن الفائت يشهد تطورا ملحوظا في دراسات السيرة، على مستوى المنهج والموضوع. وراحت هذه الدراسات تزداد –بمرور الوقت– نضجا وإحكاما بسبب من الوعي المتزايد بمطالب منهج البحث من جهة، والرغبة العلمية الصادقة في الرد على المحاولات الجانحة في التعامل مع السيرة، سواء جاءت من الخارج على يد المستشرقين بأجنحتهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم كافة، أو من الداخل على أيدي المغالين أو المنساقين وراء الميول والأهواء والتحزبات، أو المتأثرين بالمعطيات الاستشراقية في توجهاتها كافة.

ثم جاء تنامي النشاط الأكاديمي، وتزايد رسائل الدراسات العليا في المعاهد والجامعات، لا لكي تُعزز القيم المنهجية

الأصيلة في التعامل مع وقائع السيرة فحسب، وإنما أيضا لكي تنفّذ دراسات معمّقة في هذه الواقعة أو تلك، وفق معايير نقدية صارمة، وقدرة على الإمساك بالدقائق والتفاصيل والجزئيات، تُعين الباحث على الإيغال في شرايين الواقعة من أجل الوصول أو محاولة الوصول إلى بنيتها الأساسية كما تشكلت فعلا، لا كما إراد لها الرواة والأخباريون والمؤرخون أن تكون.

وفي موازاة هذا، أخذت تظهر دراسات تخصصية في السيرة باتجاه آخر... لا تقف عند هذه الواقعة أو تلك في نسيجها العام، وإنما تتعامل معها ككل، ولكن من منطلق منهجي محدد يسعى لأن يتابع معطيات السيرة عبر هذا التوجه أو ذاك من مجراها العام.

وهكذا ظهر كتاب «فقه السيرة» للغزالي لكي يقدم رؤية دعَوية للسيرة، وكتاب البوطي بالعنوان نفسه لكي يقدم رؤية فقهية، والشهيد سيد قطب ومنير الغضبان لكي يقدما رؤية حرَكية، وباحثون أخرون قدموا رؤية تربوية أو أخلاقية أو سلوكية أو سياسية.. هذا إلى قيام الدكتور أكرم العُمري وعدد من طلبة الدراسات العليا بتنفيذ منهج المحدّثين في التعامل مع مرويات السيرة.

وفي موازاة هذا كله استمرت مكتبة السيرة تشهد دراسات شمولية تتناول السيرة في حلقاتها كافة، ولكن وفق منهج أكثر دقة وانضباطا وإحكاما، يسعى لأن يضم جناحَيه على أبعاد السيرة كافة؛ دعوية وحركية وفقهية وسلوكية وسياسية وعسكرية... محاولا ألا يمرر إلا المرويات الأكثر قبولا على مستوى الرواية والدراية، أو الإسناد والمتن.

٣. البعد الحضاري للسيرة

ولكن رغم هذا العطاء السخي، ظلّت هنالك حلَقة لم تنل حظها من البحث والدرس والاستقصاء والتحليل، بالمقارنة مع الحلقات الأخرى؛ تلك هي الحلقة الحضارية، أو بعبارة أكثر دقة، محاولة متابعة البُعد الحضاري للسيرة، وتقديم تصوّر متكامل عن معطياته الأساسية.

ورغم أن العقدين الأخيرين شهدا عددا من المحاولات في هذا الاتجاه لا تتجاوز -ربما- أصابع اليد الواحدة، فإن الحاجة لا تزال تتطلب المزيد من المحاولات، من أجل إعطاء هذا الجانب من السيرة حقه، والإلمام بجوانبه كافة.

لقد بشر عصرُ الرسالة بمشروع حضاري، وتمكّن من تنفيذ العديد من حلقاته، ووضع شبكة من الشروط التأسيسية التي مكّنت الأمة الناشئة من بناء حضارتها المتميزة بعد عقود معدودة من الزمن.

ولعل المدوَّنات الأولى لأخباريّي ومؤرخي السيرة كمغازي الواقدي، وسيرة ابن إسحاق، وطبقات ابن سعد، وأنساب البلاذري، وتاريخ الطبري...الخ، بإعطائها مساحة واسعة للمغازي -وأحيانا للرجال أو الشمائل- ضيّقَت الخناق على البعد العمراني أو الحضاري لعصر الرسالة الذي تمكن بعد كفاح مرير من إقامة دولة الإسلام، ووضع التأسيسات الأولى لحضارته المتميزة.

عشرات السنين ومئاتها، ونحن نتحدث عن هذا العصر من الداخل، وبرؤية تجزيئية تتمرْكَز عند الغزوات، والشمائل، والمفردات الفقهية. ولقد آن الأوان لاعتماد «رؤية الطائر» إذا صح التعبير، لاستشراف الملامح الأساسية للعصر، والإنجازات الكبرى لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﭫ.

ولا بد، من أجل التحقق برؤية كهذه، من استدعاء المؤرِّخ والمفسر والمحدّث والفقيه والجغرافي وفيلسوف التاريخ والأديب لتوسيع نطاق الفضاء المعرفيّ عن العصر.. هاهنا حيث يصير النصّ القرآني والحديث النبوي الصحيح والممارسة التاريخية لعصر الرسالة التي يقدمها المؤرخ والفقيه، والملامح البيئية التي يقدمها الجغرافي، والخبرة الذاتية والموضوعية التي يقدمها الشاعر أو الأديب، فضلا عن الدلالات المحدَّدة للكلمات والتعابير التي يحددها اللغوي.. هاهنا المصادر الأساسية التي يكمّل بعضها الآخر من أجل تحديد ملامح المشروع الحضاري الذي وعدت به ومهدت له، ووضعت شروطه التأسيسية، ونفّذت بعض حلقاته، «سيرةُ» رسول الله ﷺ.

إننا ونحن نتحدث عن «السيرة» وشروطها المنهجية، يجب ألا ننسى لحظة واحدة أن القرآن الكريم هو الوثيقة «التاريخية» الأكثر أهمية في دراسة العصر ومحاولة الإلمام بنبضه الأساسي وملامحه المتفرّدة. وإنه (أي القرآن الكريم) ينطوي على شبكة خصبة من المعطيات التاريخية التي تحمل مصداقيتها المطلقة، والتي تشكل -بالتالي- نقاط الارتكاز في بنية السيرة حيث يجيء المحدث والفقيه والمؤرخ واللغوي والجغرافي والأديب فيقيم بنيانه عليها.

٤. الالتحام الحميم بين التنـــزيل والتاريخ

وبنظرة سريعة إلى «أسباب النـــزول» في التفاسير القرآنية والمصادر الخاصة بالموضوع، يتبين للمرء الالتحام الحميم

بين التنـــزيل والتاريخ. إن المعطى القرآني يرهص، ويصف، ويعقب، وينذر، ويعد.. وهو في خطواته الخمس هذه يمارس تغطية تاريخية للعديد من وقائع السيرة المتشكلة في الزمن والمكان، أي في التاريخ.

ولقد تحدث الشهيد سيد قطب طويلا عن هذه المسألة وهو يكتب مقدماته الخصبة في «الظلال»، عبر تفسيره للسور التي قدَّمت مادة سخية عن العديد من الغزوات والوقائع والمعطيات التشريعية، على مدى عصر الرسالة من بدئه حتى منتهاه. كما تحدث عن طريقة عمل القرآن الكريم في إحداث التغيير، وهو في بدء التحليل ونهايته، تغيير تاريخي ينطوي بالضرورة على بعده الحضاري أو العمراني، بالمفهوم الشامل للكلمة.

لقد كانت حياة الرسول ﷺ الكادحة وجهده الموصول حتى آخر لحظة، شهادةً حية على قدرة هذا الرجل النبي، على الإنجاز والتغيير بكل ما تنطوي عليه الكلمتان من بعد حضاريّ. ولقد جاءت شهادة الباحث الأمريكي المعاصر «مايكل هارت» في «المائة الأوائل» تأكيدا لهذا المعنى.

لقد حاول الباحث المذكور أن يستقصي ويدرس بمعيارَي الإنجاز والتغيير، أعظم مائةِ شخصية في تاريخ البشرية... ثم مضى لكي ينفّذ خطوة تالية، باختيار أعظم رجل من بين هذه الشخصيات المائة، وبالمعيارين ذاتهما، فإذا باختياره يقع على محمد ﷺ فيعتبره أعظم شخصية في التاريخ، وذلك في قدرته على تنفيذ إنجاز كبير ومتغيرات انقلابية تنطوي على الديني والدنيوي معا.

وعندما جاءت السنة التاسعة للهجرة، ونزلت آيات (أو إعلان) براءة في صدر سورة التوبة، لتصفية الوجود الوثَني في جزيرة العرب، كان رسول الله ﷺ قد حقّق، وصحابته الكرام ﷺ على مستوى الفعل التاريخي، المنجزات التالية التي ينطوي كل منها على بُعد حضاري مؤكد:

أولا: التوحيد في مواجهة الشرك والتعدد.

ثانيا: الوحدة في مواجهة التجزّؤ.

ثالثا: الدولة في مواجهة القبيلة.

رابعا: التشريع في مواجهة العرف.

خامسا: المؤسسة في مواجهة التقاليد.

سادسا: الأمة في مواجهة العشيرة.

سابعا: الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.

ثامنا: المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظن والهوى.

تاسعا: المعرفة في مواجهة الجهل والأمية.

عاشرا: الإنسان المسلم الجديد الملتزم بمنظومة القيم الخُلُقية والسلوكية المتجذّرة في العقيدة، في مواجهة الجاهليّ المتمرس على الفوضى والتسيّب وتجاوز الضوابط وكراهية النظام.

وكانت آيـــات القرآن الكريم وأحاديث رســـول الله ﷺ وتعاليمه قد أرستْ جملة من القيم المنهجية وآليات العمل التي مهّدت للمتغيرات العشرة الآنفة الذكر، ودعمتْها، ووضعت -إلى جانبها- شبكة من الشروط هيأت المناخ الملائم للفعل الحضاري، ومن بين تلك القيم والآليات:

١. المعرفة هي حجر الزاوية. ٢. النـــزوع إلى الأمام. ٣. التحذير من هدر الطاقة. ٤. مبدأ الاستخلاف. ٥. مبدأ التسخير. ٦. التحفيز على العمل والإبداع. ٧. مجابهة التخريب والإفساد. ٨. التوازن بين الأضداد والثنائيات، وتوحدها. ٩. التناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون. ١٠. تحرير الإنسان والجماعات والشعوب على المستويات كافة.[1]

لقد جاء الإسلام لكي يتحرك وفق دوائر ثلاث: تبدأ بالإنسان وتمر بالدولة وتنتهي إلى الحضارة التي سيقدر لها أن تَنْداح لكي تغطي مساحات واسعة من العالم القديم.

لقد كان هدف الجهد النبوي في عصر الرسالة هو التأسيس لحضارة إيمانية تستمد منهجها ومفرداتها من هدي الله سبحانه، وتقوم على لقاء الوحي بالوجود، لمجابهة حضارات الكفر والضلال، وإزاحتها، والتحقق بالبديل الحضاري الملائم للإنسان ووظيفته التعبدية والعمرانية.. البديل المتوازن في مواجهة حضارات الميل والانحراف: ﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧).

ويبقى عصر الرسالة منجما سخيا للعطاء وفق هذا المنهج أو ذاك فيما لم يشهده عصر من العصور. وما ذاك إلا لما حققه هذا العصر من تغيير جذري محليا وإقليميا وعالميا، وعلى كل المستويات، ولما انطوى عليه من قيم وخبرات تملك القدرة على الفاعلية والحضور في كل زمان ومكان.

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل – العراق.

(١) تمت معالجة هذه المباديء بالتفصيل في كتاب (مدخل إلى التاريخ والحضارة والاسلامية) للمؤلف، الجامعة الاسلامية العالمية، ماليزيا – ٢٠٠١ م، ص٣٠٩ –٣٢٨.



النُّورُ الخَالِدُ مُحَمَّد ﷺ

أحمد بهجت *

حين نـــزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، كان معنى هـــذا أن الأمر الإلهي بإعلان الإســـلام قد جاء.. من هذا اليوم بـــدأت الحرب ضد الإسلام والمسلمين والرسول ﷺ، وتركز الهجوم على شخص الرسول ودعوته. قال تعالى ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: ٤-٥). وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ۞ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (الفرقان: ٤١-٤٢).

ومضت دعوة النبي وانغرست في الأرض أشواك المشركين؛ اتهموا النبي بأنـــه كاهن، واتهموه بالجنون، واتهموه بالسحر، واتهموه بأنه افترى ما جـــاء بـــه من الحق، وأعانه عليه قوم آخرون، ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان: ٥). وطلبوا منه معجزات، من لون معين، وهي معجزات طلبها أقوام قبلهم ليؤمنوا ورغم ذلك لم يؤمنوا. وزادت ضراوة المشركين في السخرية والتجريح والاستهانة، وكان الرسول يحزن لعناد الناس، وواساه الله تعالى فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣).

كتاب «النور الخالد»

أحيانا تكون اللغة عائقا في انتشار الثقافة وعموم الفائدة، من هنا تجيء أهمية الترجمة.. وقد ظهر في تركيا كتاب عن الرسول صلاة الله وسلامه عليه، وظلّت جواهر هذا الكتاب في متناول الأتراك وحدهم حتي ترجم الكتاب إلى اللغة العربية، وباتت كنوزه في متناول العرب.

قام بترجمة الكتاب الأديب التركي أورخان محمد علي، أما مؤلف الكتاب فهو العالم الجليل محمد فتح الله كولن.. اسم الكتاب «النور الخالد محمد، مفخرة الإنسانية»..

وأول ملاحظة عن كتاب «النور الخالد» أنه لا يتناول السيرة كسرد أحداث وذكر تواريخ.. بل يتناولها من ناحية فقهها وحكمتها ومعانيها وأسرارها، وهذا أصعب ولكنه جهد مطلوب.

تسليط الأضواء على شخصيته ﷺ

إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول محمد ﷺ، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمنقذ للبشرية، وكدواء للمشاكل المستعصية على الحل وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهل له... هذا كله كان هاجسا من هواجس فكر الشيخ فتح الله كولن، وموضوعا مهما من المواضيع التي لا سبيل لمقاومة جاذبيتها وسحرها.

وهو يبدأ كتابه بمقدمة يميل فيها لجانب التفاؤل فيقول: «يكفي للاستدلال على عظمته ﷺ أنه بالرغم من كل عوامل الهدم التي أصابت عصرنا، إلا أننا ما زلنا نسمع من فوق المآذن أصداء نداء «أشهد أنّ محمداً رسول الله». تأملوا هذه الكرامة، إن جميع العقبات والسدود والموانع التي وضعها خصومنا لكي يمنعوا حبه ﷺ من القلوب أو يزيلوا ذكره من العقول، قد انهارت جميعها وتهدمت وأزيلت وتجاوزتها الإنسانية، وبدأ الشباب يهرع إليه بكل فرح وحبور. لا أدري إذا كنتم قد انتبهتم إلى الذين يملأون المساجد على سعتها في صلاة الجمعة، لو دققتم النظر لاكتشفتم أن معظمهم من الشباب. ما الذي يدفع هؤلاء الشباب في برد الشتاء القارس وفي المطر والثلج إلى المساجد وإلى الوضوء وأسنانُهم تصطكّ من البرد؟ من يدفع هؤلاء -برغم محاولة أرباب الضلالة والطغيان- جذبهم نحوهم بقوة لا تقاوم؟ إنها قوة الجاذبية القدسية للرسول محمد ﷺ.»

واضح من كتاب «النور الخالد» أن صاحبه كتبه بحبّ عميق للرسول ﷺ، يقول الشيخ محمد فتح الله كولن: «عندما منّ الله عليّ بزيارة الأراضي المقدسة لكي أعفر وجهي بترابها بدَت لي مدينة الرسول مضيئة ونورانية إلى درجة أنني ذقت معها سعادة روحية غامرة وفرحا لا يوصف، وشعرت أنه -على فرض المستحيل- لو فتحت لي أبواب الجنة كلها ودعيت أن

أدخل على أن أترك المدينة لَرفضت مفضّلا البقاء في المدينة المنورة».

رحمة للعالمين

يبدأ الشيخ محمد فتح الله كولن حديثه عن النبي المرسل رحمة للعالمين برسم لوحة لشكل الدنيا يومئذ. الدنيا يسودها ظلام دامس، ظلام يحمل في طياته نورا مرتقبا، وأصداء تحمل بشري ظهور نبي جديد.

لم يكن إنسان ذلك العصر يحمل قيمة تعطي للحياة معنى، وتجعل لها هدفا يستحق العيش من أجله. كان اسم هذا العصر «عصر الجاهلية»، والجاهلية هنا لا تأتي كنقيض للعلم، بل كمرادف للكفر الذي هو نقيض الايمان والاعتقاد. كان مجيء الرسول ﷺ نعمة كُبري للبشرية، ورحمة سابغة للعالمين، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالي: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤). كان العهد الذي سبق بعثة الرسول عهدا مظلما؛ وكل عهد تهتز فيه عقيدة التوحيد يعدّ عهدا مظلما، لأن الإيمان بالله إذا لم يحكم جميع القلوب سيطر الظلام على الأرواح واسودّت القلوب وعميت، فلم تعد قادرة على الرؤية.

العبودية لله

يتحدث الأستاذ محمد فتح الله كولن عن الغاية من إرسال الأنبياء.. ورغم وجود فروق في المراتب والدرجات بينهم فإنهم يشتركون في شيء واحد؛ إنهم أناس مختارون مصطفون تجلّت عليهم رحمة الله تعالى، فربّاهم وأدّبهم وفضّلهم على العالمين، وجعل قلوبهم مقتصرة عليه لا تحوم حول أحد غيره. وتلتقي الغاية التي من أجلها أرسل الأنبياء والرسل مع غاية خلق الإنسان وهي العبودية لله تعالى، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الغاية فيقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وإذن فإن الغاية الأساسية من خلقنا والهدف الرئيسي له هو معرفة الله، وإيفاء حقه من العبودية، وليس اقتناء القصور والأموال أو الأكل والشرب والتمتع بلذائذ الدنيا.. وصحيح أن هذه الأمور حاجات فطرية إلا أنها لا تشكل غاية لخلقنا. وما جاء الأنبياء والرسل إلا لكي يدلّونا على هذه الغاية ويرشدوا إلى هذا الطريق. يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

الغاية الأخرى من إرسال الأنبياء والمرسلين هو القيام بالتبليغ الديني، فلو لم يأتوا لَما عرفنا المسائل المتعلقة بالعبادة، ولَما عرفنا واجباتنا وما فُرض علينا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧)، والتبليغ يعني إرشـــاد الناس إلى الصراط المستقيم، والتبليغ هو سر إرسال الأنبياء.

ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى لأنبيائه ورسله أن يكونوا أســـوة حسنة وقدوة متبعة لأممهم. إن القرآن الكريم يخاطبنا قائلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١). أيضا يأتي الأنبياء والرسل لتأمين التوازن بين الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧).

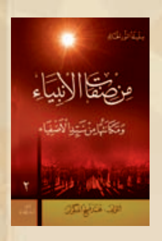
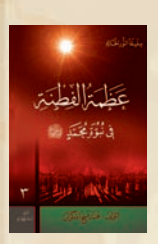
الأمين

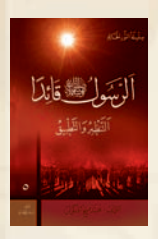
لا يقوم النبي بدعوته نتيجة تفكيره الذاتي، أو قناعته بفلسفة خاصة، أو نظام معيّن رآه صالحا. ليست النبوة كسبا بشريا، إنما هي اصطفاء واختيار من الله تعالي، وهي وحي يوحيه الله لمن يختاره من عباده المكرمين. وإذا كان التجرد هو صفة الأنبياء الأولى فإن الأمانة هي صفتهم الثانية، وهي صفة يشير إليها القرآن في أكثر من آية.

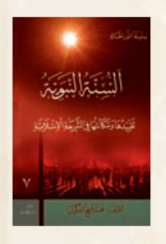
إن صفة الأمانة تتكرر مع كل الرسل كما تتكرر مع الملائكة الكرام؛ حيث أثنى الله تبارك وتعالى على جبريل عليه السلام وقال في وصفه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(التكوير: ٢٠-٢١). أما الرسول ﷺ فكان أمينا قبل بعثه بالنبوة، وكان أمينا على الوحي الإلهي بعد بعثته، وكان أمينا حيال الوجود كله، فلم تكن روح الأمانة ومفهومها عنده مقتصرا على البشر، بل نحو الوجود كله بما فيه من كائنات.

والشيخ فتح الله كولن طوال الوقت الذي يكتب فيه كتابه يضع في ذهنه مجموعة من الشباب الذين يستهدفهم بكتابته، وهو أحيانا يتوقف عن السياق الأصلي ليحدث هؤلاء الشباب ويلفت انتباههم إلى معني دقيق يريد توصيله إليهم وبهذا يكون الكتاب تاريخا ودعوة إلى الله في الوقت نفسه.

(*) كاتب في جريدة الأهرام – مصر.







«إن طبيعة محمد [ﷺ] الدينية تُدهش كل باحث مدقّق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. ولقد جهل كثير من الناس محمدًا [ﷺ] وبخسوه حقه؛ وإنه يمكن أن يعد من أعظم المحسنين للإنسانية لما قام به من إصلاح في الأخلاق وتطهير في المجتمع.»

مونته، عن كتاب «محمد والقرآن»



مكانة الرسول ﷺ في نظر المنصفين من المستشرقين

أ.د. أحمد عمر هاشم *

إن مكانة الرسول ﷺ لا تحتاج إلى بيان ولا إلى شهادة من أحد، بعد أن شهد له الواحد الأحد ﷻ حين قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

وامْتَنّ الله على المؤمنين ببعثته التي فاقت سائر النعم حيث قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وأمر الله تعالى أن يأخذ الناسُ ما آتاهم به الرسول ﷺ وأن ينتهوا عما نهاهم عنه حيث قال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، وتكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، وتكفَّل سبحانه بحفظ كل صحيح من السنة النبوية المطهرة ليكون بياناً للقرآن الكريم فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٧-١٩). وأعلن رب العزة سبحانه أنه تكفل بحفظ هذا الدين وإتمامه وإظهاره على الدين كله مهما حاربه أعداؤه، ومهما حاولوا إطفاء نوره، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف: ٨).

شهادة هرقل عظيم الروم

ولقد شهد بعظمة أشرف خلق الله هرقل عظيم الروم، بعد أن كوّن المعلومات عن رسول الله ﷺ وعن أتباعه ودينه، واستنتج من خلال الأسئلة والأجوبة التي أجراها مع أبي سفيان ومن معه عن طريق الترجمان، وتيَقّن هرقل بأنه رسول حقا، قال: «فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضعَ قدميّ هاتين، وقد كنتُ أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلُص إليه [ﷺ] لتجشّمتُ لقاءه ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه» (رواه البخاري). ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بُعث به دحية ﷺ إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم... سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الاسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيّين و ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وهكذا نرى شهادة هرقل وكيف وصل إلى الحق وإلى هذه النتيجة وإلى الحقيقة من أقرب الطرق، وهي طريق يمكن أن يسلكها كل باحث عن الحق. وها هو أبو عبيد أخرج في كتابه «الأموال» من مرسل عمير بن إسحاق قال: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر، فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزّقه، وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعه فقال رسول الله ﷺ: «أما هؤلاء فممزّقون وأما هؤلاء فستكون لهم بقية». وتلك نهاية كل من يسيء إلى رسول الله ﷺ.

شهادات عظماء أوربا

وكم في التاريخ القديم والمعاصر من نماذج عديدة لشخصيات كبرى لهم قدرهم الفكري والاجتماعي، اعتنقوا الاسلام وعرفوا

أن الرسول ﷺ هو الحق ودينه هو الحق، فلم يسيئوا إليه بل إنهم شهدوا له واعترفوا بفضله وعظمته. وإليك أيها القارئ العزيز بعض نماذج من غير المسلمين ومن المستشرقين المنصفين:

ها هو ذا «ليونارد» قال: «إن محمداً [ﷺ] أعظم البشرية قاطبة، وأصدق إنسان وجد على وجه الأرض منذ بدء الخليقة». نعم إنه أعظم البشرية، في رسالته العالمية التي حملت الرحمة للعالمين، وفيما جاء به من تعاليم أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، ومن العسف والظلم إلى نور العدالة والحق.

وها هو ذا «جورج برنار دشو» يقول: «كنتُ على الدوام أنزل ديانة محمد [ﷺ] منـــزلة كبيرة من الإعزاز والإكبار لعظمته التي لا تُنكر، إنني أعتقد أن دين محمد [ﷺ] هو الدين الوحيد الذي يناسب كل إنسان ويصلح لكل زمان، ويتمشى مع كل بيئة في هذا العالم، في كل مرحلة من الحياة. وإني أتنبأ بأن دين محمد سيلقى القبول في أوربا غداً، كما يلقاه فيها الآن».

وها هو «لامارتين» الكاتب الفرنسي والمؤرخ المنصف قال: «وإذا أردنا أن نبحث عن إنسان عظيم تتحقق فيه جميع صفات العظمة الإنسانية، فلن نجد أمامنا سوى محمد الكامل». وفي هذا القول ما يوضح وصول هذا الكاتب إلى الحق والإنصاف بأن رسول الله ﷺ جمع كل صفات العظمة الإنسانية.

وها هو «ألفرد مارتين» في كتابه «أكبر زعماء الديـــن في الشرق» يقول: «والحقّ أنّ محمداً بما قام به من الإصلاحات والتشريعات، وما نشَره من المدنية الإسلامية والحضارة الرائعة والنظم الاجتماعية، قد أدّى أكبر خدمة إنسانية للعالم كله لا لجزيرة العرب وحدها».

حاجة العالَم إلى رسالة محمد ﷺ

والناظر إلى هذه الشهادات وإلى آراء المستشرقين المنصفين يرى أن العالم كان في حاجة إلى هذا النبي العظيم الذي نشر النور والهدى، وأسس أعظم حضارة بنّاءة نفعت الإنسانية وقامت على العدل والإنصاف وعلى الحق، وحماية حقوق الإنسان وصيانتها. أيَليقُ بأحد مـــمَّن جهِل قدر هذا النبي العظيم أن يتطاول عليه أو أن يسيء إلى مقامه العظيم الذي رفعه الله سبحانه وتعالى إليه؟!

إن الذين أساءوا بالرسوم الآثمة ارتكبوا أكبر خطيئة في حق الأديان والشرائع والثوابت والرسل أجمعين. وأصبح من الضروري على النظام العالمي أن يُنـــزل أقسى عقوبة عاجلة وسريعة بالمعتدين حتى لا تتكرر إساءتهم بعد ذلك. وإنّ استصدار قانون دولي يُنـــزل عليهم وعلى كل من يعتدي على أي رسول من رسل الله العقوبة من الأمور الواجبة التي يجب على النظام العالمي أن يبادر بها إحقاقاً للحق وصيانة لحقوق الرسل والشرائع، واتقاءً لفتنٍ طائفية نحن في حل منها.

وعلى أمتنا الإسلامية في كل مكان أن تكون على مستوى المسئولية، فتطبق تعاليم هذا الرسول العظيم وتقتدي به وتتأسى بسلوكه، وأنْ توحّد صفوفها وتجمع كلمتها، وتصون عقيدتها وهويتها، وألا ترد على عبث الآثمين بأساليب كأساليبهم فلا تحرق ولا تهدم ولا تعتدي، لأن من تعاليم نبي الرحمة حتى في الجهاد ألا يُحرق الزرع وألا يُهدم البناء وألا يُقتل الطفل أو المرأة أو الشيخ الكبير... لأن رسولنا ﷺ رحمة الله للعالمين.

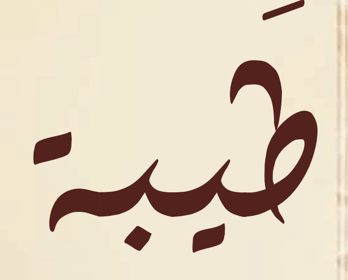
(*) رئيس جامعة الأزهر السابق –مصر.

«فلو أني أعلم أني أخـــلُـــص إليه [ﷺ] لتجشّمتُ لقاءه ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه»

(**هرقل عظيم الروم**، رواه البخاري في صحيحه)



مفتاح الكعبة المعظمة
متحف طوب قابي – إسطنبول



أ.د.حسن الأمراني *

طبَتِ الجوانحَ طَيبةُ الزهراءُ ... فصبَتْ إلى أَفْيائها الوَرْقاءُ

ورقاء أرّقها الحنينُ فأفصحت ... والعشقُ كم يشقى به الفصحاء

ورقاء رقّت صبوة فترقرقتْ ... نهراً علاه من الوفاء صفاء

فرقَتْ فقد طرقتْ حياضاً زانَها ... من نور أحمدَ صيِّبٌ معطاءُ

هي نفسيَ الثّكلَى وكم أثقلْتُها ... بالذنب وهْو إلى الجحيم رِشاء

حتى تَدارك ضَعفَها من فضله ... مَنْ أمرُه التكوينُ والإنشاء

ربٌّ كريم ليس تأخُذه، إذا ... نام الورى، سِنةٌ ولا إغفاء

فأفاض نعمتَه عليه فأصبحتْ ... تَسقيه بهجتها يدٌ غرّاء

ما شاقها إلا توهّج بارق ... تَفترّ عنه القبة الخضراء

«هي طَيبةٌ طابت» وطاب بها الهوى ... حتى الهواءُ يطيب فهو رُخاء

فإذا شكوتُ مَواجعي فلربّما ... أضحى الشَّكاةَ تبتّلٌ ودعاءُ

أختاه يا بنت المكارم أقبلي ... مزهوة بالعشق فهو ضياء

إن كان في ذات الإله لقاؤنا ... ما يصنع العذال والرُّقَباء؟

أوْ كان يجمعنا الحبيب على الهوى ... فلقد يطيب على البعاد لقاء

أعَلى ثراها سار أكرم مرسل؟ ... هذا الترابُ من الصفاء سماءُ

حب ومكرمة وإحسانٌ، به ... يتنعّم الفقراء والضعفاء

الأصفياء همُ، وهم أهل الهوى ... ولهم بجنب الصفّة استشفاء

نحن المساكينَ ازدهتْ تيجاهُم ... بالحب، دقّ فلفظُه إيماء

والحب زادُ العارفين وأُنسُهم ... وشرابهم فهُمُ به سعداء

يكفيه منه أن يَفيض ويزدهي ... «أحُدٌ» وتسعد باسمه البَطحاء

«هذا الأشمّ يحبّنا ونحبّه» ... لحن تَقاصَر دونه الشعراء

يا طِيبَ «طَيبة» أنت وردٌ طيّبٌ ... مترقرق، والعاشقون ظِماء



(*) رئيس تحرير مجلة «المشكاة» – المغرب

الطُّيُور...
مُلَحِّنُون لم نَحلّ أسرارهم بعدُ..

عُزَيْر أُوغُور *

هـل فكّرتَ كيف تكون الطبيعة بدون طيور؟ ما هي المعاني التي تتأتى لك من ألوانها الحيَّة ونغماتها الجميلة؟ وسندع الحديث عن ألوانها الخلابة ونحصر البحث في ذكر أصواتها التي يتأثر بها كل إنسان.

كيف تُصْدِرُ الطيور الأصوات؟

الطيور لا تملك حَنْجَرةً كتلك التي يملكها الإنسان. بل تملك بدلاً منها ذلك العضو الذي يُسمى مصفاراً «سِيْرِنْكس – Syrinks». إن المِصفار يُوجد مُزْدَوجًا في أعماق صدر الطائر، وفي المكان الذي تنقسم فيه القصبة الهوائية إلى شعبتين. إن العلماء يسعَون إلى معرفة الكيفية التي تعمل بها تلك الآلة الموسيقية العجيبة؛ وذلك بوضع كابلات بصرية فَيْبِريَّة في القصبة الهوائية للطيور، ثم يضخون فيها غازي الهليوم والأوكسجين. أو يدفعونها إلى التغريد ومناقرها مفتوحة، ويُرَاقِبون ذلك بأشعّة إكْس وما فوق الأشعة الحمراء.

وبينما هم يستمعون لقطعة من المِصفَارَات، فإن قطعة أخرى قد تم تهيئتها لتُصدر صوتاً؛ فالطائر يُمكنه أن يُصدر صوتين مختلفين في آن واحد؛ لدرجة أنه يمكن أن يعمل «دُويتُو» أي ثنائي مع نفسه؛ فطيور الكاردينال يُمكنها أن تتبادل إغلاق شُعْبَتَي قصبتها الهوائية، بينما طائر الكناريا يمكنه أن يغرد من ناحية ويتنفس من الأخرى في نفس اللحظة، بينما طيور الزرزور قد خُلقت بشكل يُمَكِّنها من أن تُصدر ثلاثين نوتة موسيقية مختلفة في كل ثانية.

إن تقليدَ صوتِ الإنسانِ أمر صعب للغاية؛ فالببغاوات وطيور المحبَّة وطائر الزَّقزاق كل منها صار ترجماناً لأسماء الله الحسنى مستخدماً تقنيات مختلفة قد أودعها الخالق فيها. فالببغاوات تختلف عن كثير من الطيور الأخرى، فلها كالإنسان ألسنة غليظة. هذا بالإضافة إلى أن القدرة الإلهية قد منحَت هذا الطائر القدرة على أن يُلوّن صوته ويُحمِّله من المعاني المختلفة حتى وإن لم تتطابق مع ما هو لدى بني البشر. الطيور تُخرج من مِصْفَارَاتها أصواتاً بسيطة. ثم تقوم بتنويع وتشكيل هذا الصوت باستخدام الفم أي المنقار والقصبة الهوائية واللِّسان. أما أنواع طيور المحبة فيمكنها إصدار أصوات من مصفاراتها تبلغ ما بين ٢–٣ كيلو هرتز تردّدي، بالإضافة إلى أنه يُمكن إضافة اهتزازات خاصة أخرى إلى هذه الأصوات. هذه العملية تعتمد على النظام الذي تعتمد عليه الإذاعات والمعروف جيداً بنظام (A.M) وأُطلق عليه اسم التنغيم الترددي. وما زالت طيور المحبَّة محتفظة بسر كيفية استخدام هذا النظام التردّدي.

كل الطيور تُصدر صوتــاً؛ ولكن ليس كل صوت أُغنية، فالغناء خاصية قد أودعها الخالق في مجموعة الطيور الصَّدَّاحة.

الرسائل التي تَحْملها أصوات الطيور

إن تغاريد كل طائر تحتوي على رسائل كثيرة؛ فمنها رسائل مودّة ورسائل تغذية أو دعوة لاجتماع أو إخطار عن مَهْلَكة أو توضيح منطقة تواجده. إن الطيور لا تستخدم كل هذه الرسائل جملة، ولكن لا بدّ وأن تستخدم واحدة من تلك الفئات على الأقل. وبعض الطيور رغم ظروف بيئتها المعيشية المختلفة يُمكنها أن تستخدم نفس النداءات. ومع هذا، فإن علماء الطّيور (Ornithologist) قد أثبتوا أن الطيور يُمكنها أن تُصدر صوتاً يحمل ما بين ٥–١٥ رسالة مختلفة إلى بعضها البعض. وفي محاولة تَعَرُّف الآباء والأمهات والصغار على بعضهم البعض قد وُجدَ أن تأثير الصــوت أقوى مــن الرؤية. فالديك الــرومــي الأصــمّ لا يــعرف صِغاره، كما أن الدجـــاج لا





يَسْتطيع أن يتعرف على كتاكيته أو أفراخه الصامتة.

وفي المقابل أنواع الطيور البليدة أنواعٌ تتكاثر بشكل جاليات أو تجمعات كبيرة، أو تجمّعات مُهَاجرة؛ وفي المناطق التي تبني فيها أعشاشها تجيء وتمضي آلاف الطيور، وعلى الرغم من هذا الوسط والمناخ الضوضائي، فإن هذا الطائر يتعرف على أليفهِ من بين الآلاف من نفس جنسه فور أن يسمع تغريدة في واحدٍ على عشرة من الثانية من تغاريده. ووفقاً للأبحاث التي تَمَّتْ فلدى أفراد أنواع الطيور التي تتكاثر وتعيش في شكل مستعمرات أو تجمعات مهاجرة فإن الصغار يمكنها أن تتعرف على أَبَوَيْها بالصوت فقط. فالله سبحانه وتعالى كما خلق سماتها وأشكالها مختلفة، فإنه كذلك قد خلق أصواتها مختلفة ومتنوعة كدليل على قدرته. وهكذا قد أعطى الخالق دَوراً للأصوات في تنظيم حياة الإنسان وحياة المخلوقات ذوات الروح أيضاً.

إن الطيور منذ المراحل المبكّرة جداً من حياتها، حتى قبل أن تخرج من البيضة قد تم تجهيزها بالقدرة على إمكانية استخدام أصواتها؛ فمثلاً أفراخ طائر السُّمان تبدأ التخابر مع أُمهاتِها ومع بعضها البعض وهي ما زالت داخل البيضة. لهذا السبب؛ فإن الصغار تخرج من البيضة في وقت مُتَزامن. وفرخ البَجَع يُمكنه أن يُعْلِم أو يُشعِر أُمَّه إن كان داخل البيضة باردًا أو حارًّا.

أغاني الطيور

إن كل أُغنية من أغاني الطيور ذات لحن خاص بها. ولكل الموجودات أَلْسُنٌ يذكرون الله بها. وهذه اللغة أوضح ما تكون لدى الطيور. وبَيْنَما الطيور تُؤدي أذكارها من ناحية، فهي تُقَدِّم ترانيم الانشراح لبني البشر من ناحية أخرى.

إن أشهر الطيور المغرِّدة هو العندليب. ولقد قيل في حق هذا الطائر «ليس في العالم أي آلة موسيقية قط، يمكنها أن تعزف صوتاً جميلاً كذلك الصوت الذي يخرج من فم هذا الطائر». إن هذا الصوت الذي يصدر عن أجسادها الصغيرة لا يُصَدَّق. إن طير الشقراق الأوروبيّ يُمْكِنه أن يُغَنِّي أُغنية تحتوي على ٧٤٠ نغمةً موسيقية في فترة وجيزة تقل عن دقيقة، ويستطيع أن يُغرد بشكل يمكن سماعه من مسافة تزيد عن خمسمائة متر. وإذا ما تم مقارنة مقاييس الجسم الإنساني بهذه الطيور، فعلى الإنسان أن يُسْمِعَ صوته إلى مسافة تتراوح ما بين ٦–٨ كم. بعض الطيور، عملياً تغرّد دون توقف طوال موسم التكاثر. وطائر الكراز الأصفر الذي يعيش في أوروبا يُكَرِّر أُغنيته أكثر من ٣٠٠٠ مرة يومياً. وأَمَّا الأُخَيْضر؛ ذلك العصفور الأمريكي، الزيتوني اللَّون، صاحب العين الحمراء والمغني الجَيِّد، فلقد تم تسجيل تأديته لأُغنيته ٢٢١٩٧ مرة في اليوم.

وبعض طيور الشقراق الصدَّاحة، يُمكنها حساب بُعد الصوت مُحَدِّدة النقطة التي تسمع منها هذا الصوت الصادر عن ذَكر آخر من نفس النوع، وتُقلل من قَدْرِه وفقاً واعتماداً على مصدر الصوت دون النظر إلى حجمه. إن الأبحاث حول طير الشقراق أثبتَت أن الإناث ترجح وتفضل الذكور الذين يُغنون أُغْنِيَةً في نسق لحني أكثر تعقيداً.

إن وَقت السحَر هو أنسب الأوقات لتغريد الطيور في الغابات، لأن السكون والسكينة تشمل المكان. بالإضافة إلى أن الصوت يمكن أن ينتقل في وضوح كامل. ومن ناحية أخرى؛ ففي هذا الوقت يَقلّ فيه ظهور الطيور الجارحة. وثالثاً؛ فبالنسبة للطيور الآكلة للديدان والحشرات، فالوقت ليس وقت صَيد لعدم ظهور الحشرات المنبهة والمُحَذِّرة بعد. رابعاً؛ فهذا الوقت من الصباح بالنسبة للكثيرين من إناث الطير هو أنسب شريحة زمنية قبل الرقاد على البيض. وأخيراً؛ فإن هذا أنسب الأوقات لدعوة الذَكر لأنثاه لكي تغرد له أحسن الألحان. وعلماء الطيور في أبحاثهم، قد سجّلوا تغاريدَ تعود إلى أكثر من ٢٠٠ نوعٍ من أنواع الطيور وحدَّدوا الفوارق فيما بينها. فالطيور تصدحُ بتغاريد مشترَكة تعود إلى كل نوع من أنواعها وأنها تُقوي العلاقات الاجتماعية فيما بينها. هذه الحادثة أكثر وضوحاً بين الطيور غير المهاجرة، وهذه الطيور لها لهجاتها المحلية الخاصة بها.

بعض الطيور تترنم بتغاريد بسيطة، والبعض يتغنى بترانيم أكثر تركيباً. فمثلاً أنواع مثل الإسبينوز يمكنها بصفة عامة أن تغرّد بخمسة ألحان مختلفة. والذكور الذين يحصلون مبكراً على رفيقات لهم في موسم التكاثر، فهم يتغنون بأغاني أكثر تركيباً.

طُرُق أُخْرَى لإصدار الصوت

إن بعض الطيور تُصدر صوتاً بضرب مخالبها في الأرض، أو أجنحتها كما هو الحال في الطيور البحرية ذات الأجنحة الطويلة؛ فمثلاً طيور القادوس البحرية تُصدر أصواتها بفتح وغلق مناقرها. بالإضافة إلى أن الطيور يمكن أن تستخدم أجنحتها من أجل إصدار الصوت؛ فمثلاً طيورُ نوع الحَجَل تفتح أجنحتها بشكل جماعي وتغلقها مصدرة أصواتاً، وتبرز بعض ريشها الذي خُلق مميّزاً لها، كما يمكن أن تصدر عنها ارتعاشات وذبذبات محدثة صوتاً. كذلك يمكن أن نضرب مثلاً بالبَجَع (أي الإوزّ العراقي) على الطيور الصامتة التي لا تُصدر صوتاً إلاّ بأجنحتها؛ كما أن كل نوع من أنواع الطيور النقّارة الخشب، تُنْقُرُ الأشجار بضربات مختلفة عن بعضها البعض. وهكذا، وبينما هي تنقر الأشجار فإن الذكر والأنثى من هذه الطيور يتعرفون على بعضهم البعض من هذه الأصوات بسهولة ويُسر.

كيف تتعلم الطيور الألحان؟

عندما تم دراسةُ أغاني الطيور، اتّضح أنها تُصدر بمهارة كبيرة تلك الأصوات والنغمات التي لا يمكن إصدارها بالآلات الموسيقية. وأثبتت الأبحاث أن قسماً من النغمات الغنائية قد مُنِحَت للطيور منذ الخليقة، وأن قسماً تعلمته من الطيور التي تعيش معها في نفس البيئة. فطائر الإسبنوز والعصفور ذو العرف الأبيض -حتى وإن تم تربيتها في بيئة مختلفة عن بيئتها الطبيعية- قد لوحظ أنها أنتجت نفس التغاريد الخاصة بنَوعها. ولكن هذه التغاريد عند مقابلتها ومقارنتها بالتغاريد ذات القالب الخشن والغريب، فقد اتضح أن بينهما فرقاً كبيراً. والعلماء على إيمان راسخ بأن إبداع الطيور وجعلها تغرد تغاريدها هي فطرة كامنة فيها. هذه الطاقة الكامنة التي منحها الله للطيور قد تم تقديمها بشكل مطوَّر بإسماعها لأفراد هذا النوع الكاملة النمو وتدريبها عليها.

وبعض أنواع الطيور يمكن أن تمر بمراحل تعليمية مختلفة. فهذه الأنواع؛ بينما لم يكن في إمكانها إصدار ترانيمها وتغاريدها بشكل جيد في الأيام التي أعقبت ميلادها، فبعد تدريبها لعدة أسابيع فإنها تُغرد بشكل أفضل. ويُطلق على تغاريدها التي بدأت بها في أول الأمر تغاريد لدائنية (أي بلاستيكية). هذه التغاريد اللدائنية تُشكل الأساس للأغاني والتغاريد التي تشدو بها في مراحل النضج والنمو الكامل. وهناك فوارق كبيرة بين الأنواع المختلفة للطيور؛ فبعضها يمتلك قوالب غنائية قوية مُنِحَت إياها منذ الخليقة، ويمكنها



أن تغرد عقب ميلادها أينما تكون دون أن تتلقى أي تدريب أو تعليم. والبعض الآخر، يمكنه أن يتعلم بعض الأشياء من أغاني نفس جنسه ومن تغاريد الأجناس الأخرى. وعلى سبيل المثال؛ فإن طائر الزرزور، يُمكنه أن يُثري أغانيه وترانيمه الخاصة بتقليد صفير طيور السواحل وأصوات الطيور التي تصدح في محيطه، بل حتى يمكنه أن يقلد الأصوات الميكانيكية.

حاسة السمع عند الطيور

فلِكي تستطيع الطيور أن تُصدر صوتاً، لا بد أن تصل إلى معنى ما تسمعه. ولكن الطيور لا تمتلك صُوانًا لأذنَيها على شكل يمكن أن يُرى من الخارج. ولقد مُنِحت الطيور ميكانيزم سمعية تختلف عما هو لدى الإنسان. فالطيور تستطيع أن تتذكر الصوت ومصدره. الطيور لا تُخطئ في تلقيها الطنين أو الرنين، فلديها القدرة على أن تكتشف النغمات القصيرة التي لا يمكن أن يكتشفها الإنسان. معنى ذلك أن الزمن الذي يستغرقه الإنسان في تمييز نغمة ما، يمكن للطيور أن تُميز فيه عشر نغمات. كما أن الطيور تستطيع أن تسمع أصواتاً أدق وأرق من تلك التي يسمعها بنو البشر.

كَوْن أن المخلوقات كلها قد سُخِّرت لخدمة الإنسان بشكل مباشر أو غير مباشرة، فالطيور أيضاً قد خُلقت لكي تقوم بوظائف مهمة من أجل البشرية. لقد أُنيطت بالطيور أدوارٌ مهمة في تأمين التوازن البيئي في عالمنا. ومن ناحية أخرى، فلقد استخدم طير الحمام بخاصة في التخابر والمراسلة في فترات زمنية لم تكن الاتصالات قد أُجريت بتقنيتها المعاصرة. وإن تعليم سيدنا سليمان عليه السلام «لغة الطير» و«منطقه» وكونه قد استفاد من الطيور، لَممّا يلفت النظر ويضع هدفا أمام الإنسانية. فإذا ما تمت دراسات وأبحاث جادة، فلربما تمكنت الإنسانية ذات يوم من الاستفادة من الطيور في المجالات المختلفة.

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصفصافي أحمد القطوري.

فصل المقال ١
فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال
عند الحكيم بديع الزمان

أ.د. طه عبد الرحمن *

نستهل هذا البحث باتخاذ إجراء اصطلاحي أساسي، وهو أن نخصص (من الآن فصاعدا) لفظ «الفلسفة» بالدلالة على المعرفة التي وضعها الإنسان من عنده، فنقول: «الفلسفة الإنسانية»، ولا نقول: «الفلسفة القرآنية»، كما نخصص لفظ «الحكمة» بالدلالة على المعرفة التي جاء بها الوحي من عند الله، فنقول: «الحكمة الإلهية»، ولا نقول: «الحكمة الفلسفية» أو «حكمة الفلاسفة»، ولا بالأوْلى نُطلق اسم «علم الحكمة» على الفلسفة، ولا اسم «الحكماء» على الفلاسفة.(١)

ولا يخفى أن هذا الإجراء الاصطلاحي يضاد كليا نظيره الذي قام به ابن رشد، فقد خص كلمة «الحكمة» بإفادة معنى «الفلسفة» في مقابل «الشريعة» كما جاء ذلك في عنوان كتابه المعروف: **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**؛ ومن شأن تخصيص الفلسفة بالحكمة ومقابلتها بالشريعة أن يوهم بأن الحكمة اجتمعت كلُّها في الفلسفة وأن الشريعة ليس شيء فيها حكمة، بحيث تَرِد على هذا الإجراء شبهة التخليط أو التغليط؛ ولا دفع لهذه الشبهة إلا بتغيير عنوان هذا الكتاب بأحد الطريقين: إما الاستبدال أو التقييد؛ والطريق الأول منهما يقوم في أن نضع لفظ «الفلسفة» مكان لفظ «الحكمة»، فنقول: **فصل المقال فيما بين الفلسفة والشريعة من الاتصال**، ولا سيما أن المصطلح الذي اختار ابن رشد أن يستعمله في أول كلامه في كتابه هذا هو لفظ «الفلسفة»، وليس لفظ «الحكمة»؛ والطريق الثاني يقوم في أن نخصص طرف الحكمة من طرفَي هذه المقابلة بواسطة الإضافة، فنقول: **فصل المقال فيما بين حكمة الفلسفة وحكمة الشريعة من الاتصال** أو نخصصه بواسطة الإسناد، فنقول: **فصل المقال فيما بين الحكمة الفلسفية والحكمة الشرعية من الاتصال**.

وبعد هذا التوضيح الاصطلاحي الضروري، نتَّبع في عرض موقف بديع الزمان من العلاقة بين «الفلسفة» و «الحكمة» الطريق الذي يُؤْثِر هو نفسه اتباعَه في بسط أفكاره وآرائه، لأننا نكون بذلك أقرب إلى فهم هذا الموقف مما لو نحن نتَّبع في ذلك طريقا غيرَه من طرق العرض والإيضاح والتحليل المعلومة؛ وليس هذا الطريق المفضَّل لدى بديع الزمان إلا طريق التمثيل والتشبيه؛ فلنوضح إذن موقفه من هذه العلاقة بتشبيه تمثيلي مخصوص نتأوَّله ونتعرف من خلاله على الصفات التي يتميز بها هذا الموقف؛ وليكن هذا التشبيه كالتالي:

فكما أن «كوبيرنيك» أحدث انقلابا في تصور العلاقة بين الأرض والشمس،(٢) فكذلك بديع الزمان أحدث انقلابا في تصور العلاقة بين الفلسفة والحكمة، أو قُل على جهة التشبيه، بين **أرض** الفلسفة و**شمس** الحكمة؛ غير أن هذا الانقلاب الجديد أخذ مسارا معاكسا لانقلاب فكري آخر نُعِت هو أيضا بكونه «كوبرنيكيا»، وهو بالذات الانقلاب الذي أَحدثه «كانط» في تصور العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف؛(٣) فيتعين إذن أن نحدد خصوصية انقلاب بديع الزمان -هذه الخصوصية التي تَثْبُت له معها الصفة «الكوبرنيكية» وتنتفي عنه الصفة «الكانطية»- كما يتعين تحديد نوع الإنسان الذي يتولد من هذا الانقلاب الفكري الجديد.

ومعلوم أن مفهوم «الانقلاب» أخص من مفهوم «التغيير»، إذ هو تغيير الشيء إلى ضده أو نقيضه، بحيث يكون الموقف من العلاقة بين الفلسفة والحكمة الذي انقلب إليه بديع الزمان مضادا للموقف الذي انقلب منه؛ فلننظر الآن في هذا الموقف المنقلَب منه، حتى نتبين قدر التحوّل الذي سوف يطرأ على فكر صاحبه.

١. بديع الزمان الفيلسوف والوصل بين الفلسفة والحكمة

يقر بديع الزمان بأنه اشتغل بالفلسفة مدة وتعلق بها تعلقه بالعلوم العقلية كما اشتغل وتعلق بها غيره من المفكرين،(٤) بحيث يصح أن نَعُد هذه الفترة من حياته الفكرية **فترة تفلسف** صريح جعله يتخذ من العلاقة بين الفلسفة والحكمة نفس الموقف الذي اتخذه فلاسفة الإسلام من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن

رشد،[٥] وهو، على التعيين، موقف **الجمع** أو **الوصل** بينهما، بمعنى أن الفلسفة لا تخالف الحكمة، وإنما توافقها.

والواقع أننا إذا دققنا النظر في هذا الجمع -أو الوصل- وجدنا أنه يتخذ صورتين اثنتَين: إحداهما، الصورة التي اشتهر بها الكندي والفارابي وابن سينا؛ والثانية، الصورة التي اشتهر بها أبو سليمان السجستاني وابن رشد؛ فلنبسط الكلام في هاتين الصورتين للوصل بين الفلسفة والحكمة.

١,١. جمع التداخل بين الفلسفة والحكمة: إن الصورة الأولى التي اتخذها الجمع بين الفلسفة والحكمة هو أنه عبارة عن **تداخل**، بمعنى أن الفلسفة والحكمة تدخل إحداهما في الأخرى، فما تقرره الحكمة تثبته الفلسفة وما تدّعيه الفلسفة تؤيده الحكمة، بحيث تنـــزلان منـــزلة **الأختين الشقيقتين**؛ ويقوم هذا الوصل التداخلي، حسب ما جاء في نصوص بديع الزمان، على مبدأين أساسيين:

أحدهما، **مبدأ تأسيس النقل على العقل**: ومقتضاه أن النقل يُؤوَّل على مقتضى العقل متى ظهر تعارضه معه.

والثاني، **مبدأ التوسل بالعقل في النقل**: ومقتضاه أن المفاهيم العقلية تكون وسائط في بيان الحقائق النقلية.

وقد عَمل بديع الزمان بهذين المبدأين في فترة تفلسفه، إذ يخبرنا أنه كان يقيم الحقائق الإسلامية على أدلة عقلية كما هي طريقة الفلاسفة، داخلا في مناظرة خصومه وخصوم الإسلام.[٦] كما نجد أنه كان يلجأ في توضيح المعاني الإسلامية إلى المفاهيم الفلسفية كشأنه مع معنى «العدل»، إذ لجأ في بيانه إلى نظرية «أفلاطون» في الفضائل الأربع -أي العفة والشجاعة والحكمة والعدل- وأيضا إلى نظرية «أرسطو» في مفهوم «الفضيلة» باعتبارها وسطا بين الإفراط والتفريط.[٧]

٢,١. جمع التصاحب بين الفلسفة والحكمة: أما الصورة الثانية التي اتخذها الجمع بين الفلسفة والحكمة، فهي أنه عبارة عن تصاحب؛ بمعنى أن الفلسفة والحكمة، ولو أنهما تعبِّران عن حقيقة واحدة، تبقيان مستقلتين إحداهما عن الأخرى، إذ تكون لكل واحدة منهما لغتها وجمهورها ومنهجيتها ومقصديتها الخاصة، فتكون العلاقة بينهما علاقة تساوق وترافق أشبه بترافق **الصديقتَين**؛ والأصل في القول بهذا **الوصل التصاحبي** هو الاعتقاد بأن الفلسفة تأخذ بمبادئ ثلاثة لا تأخذ بها الحكمة:

أحدها، **مبدأ الاندهاش**: ومقتضاه أن فعل التفلسف يتولد من الشعور بالدهشة -أو العجب- إزاء الآثار في النفس أو إزاء الأشياء في الأفق.

والثاني، **مبدأ الاستشكال**: ومقتضاه أن الفيلسوف لا يفتأ يضع الأسئلة تلو الأخرى، باحثا عن الأجوبة عنها.

والثالث، **مبدأ الاســـتدلال**: ومقتضاه أن الفلسفة تستند في إثبات حقائقها إلى الأدلة العقلية التي قد تبلغ أعلى مراتب اليقين.

وقد عَمل بديع الزمان بهذه المبادئ الثلاثة، هي الأخرى، في فترة تفلسفه، إذ كان يتمتع بقدرة اندهاشية قَلَّ نظيرها، فلا يرى شيئا في نفسه أو في أفقه إلا ويرى فيه سرا عجيبا ينبغي استكناه أمره؛ وأيضا كانت الأسئلة المصيرية تملك عليه مشاعره وتستحوذ على مداركه، فيشغله طلب الأجوبة عنها طويلا، معاودا النظر فيها، إن تصحيحا أو تعميقا. ولم يكن بديع الزمان يجد من طريق أسلم في استكناه الأمور التي يندهش لها ولا في الجواب عن الأسئلة التي تهجم عليه إلا طريق البرهان العقلي، لكي تطمئن نفسه التي بين جنبيه ويقتنع خصمه الذي بين يديه.

وعلى الجملة، كان بديع الزمان الفيلسوف كغيره من فلاسفة الإسلام يسلّم بمبدإ الجمع بين الفلسفة والحكمة، سواء اتخذ هذا الجمع شكل **التداخل** كما عند الفارابي وابن سينا أو شكل **التصاحب** كما عند ابن رشد.

٢. بديع الزمان الحكيم والفصل بين الفلسفة والحكمة

ها هنا يجب التنبيه على حقيقة أساسية، وهي أن هذا الجمع بين الفلسفة والحكمة، إذا كان النظر العقلي المجرد يجوِّزه ولا يحيله، فإن الواقع الحي يكذبه ولا يؤيده؛ ذلك أنه حدثَ على مرأى ومسمع من بديع الزمان انقلاب سياسي اجتماعي تصدَّع له التاريخ واهتز له المجتمع وصعق له الإنسان؛ ولم يكن هذا الانقلاب السياسي الاجتماعي إلا أثرا من الآثار التي انعكس بها على المجتمعات الغربية الانقلاب الفكري الذي قامت به الفلسفة الحديثة ضد الحكمة الدينية والذي يمثله خير تمثيل فكر الفيلسوف الألماني «كانط».

وكان لا بد لهذا التعارض الغريب بين تجويز العقل للجمع بين الفلسفة والحكمة وتكذيب الواقع المعيش له من أن يشغل بال بديع الزمان طويلا ويدعوه إلى مراجعة موقفه الفلسفي وبالتالي إلى تجديدِ النظر فيما تقرر بين فلاسفة الإسلام من أن الفلسفة والحكمة متصلتان اتصالَ تداخلٍ كالشقيقتين أو اتصالَ تصاحبٍ كالصديقتين.

من هنا يبدأ العهد الجديد لبديع الزمان، إذ يتجرد من لباســه الفلسفي القديم ليلبس لباسا جديدا، ألا وهــو لباس الحكمة، أو قل ها هنـــا نشهد **موت بديع الزمان الفيلسوف وولادة بديع الزمان الحكيم**،[٨] ونسوق في هذا المقام نصا بهذا الشأن لا غبار عليه، وهو التالي:

«راجعت أول ما راجعت تلك العلوم التي اكتسبتها سابقا أبحث فيها السلوة والرجاء؛ ولكن كنت -ويا للأسف!- إلى ذلك

الوقت مغترفا من العلوم الإسلامية مع العلوم الفلسفية ظنا مني – ظنا خطأ جدا– أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدر الرقي والتكامل ومحور الثقافة وتنور القلب، بينما تلك المسائل الفلسفية هي التي لوثت روحي كثيرا، بل أصبحت عائقة أمام سموي المعنوي».

«نعم، بينما كنت في هـــذه الحالة، إذا بحكمة القرآن المقدسة تسعفني، رحمة مـــن العلي القدير، وفضلا وكرما من عنـــده سبحانه، فغسلت أدران تلك المسائل الفلسفية، وطهرت روحي منها –كما هو مبين في كثير من الرســـائل– إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية يغرق روحي ويطمسها في الكائنات، فأينما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نورا ولا أجد قبسا، ولم أتمكن من التنفس والانشراح حتى جاء نور التوحيد الساطع النابع من القرآن الكريم الذي يلقن «لا إله إلا الله»، فمزق الظلام وبدده، فانشرح صدري وتنفّس بكل راحة واطمئنان».[٩]

ويتخذ هذا التحول الجذري في حياة بديع الزمان مظهرين اثنين: أحدهما مظهر نقدي والثاني مظهر بنائي.

١,٢. انقلاب بديـــع الزمان ونقد الوصـــل بين الفلسفة والحكمة؛ يتجلى المظهر النقدي لهذا التحول في كون بديع الزمان اشتغل بنقد الجمع بين الفلسفة والحكمة في صورتيه الاثنتين: التداخل والتصاحب نقدا مثلّثا: نقدا منطقيا ونقدا أخلاقيا ونقدا إشاريا؛ ولا عجب في ذلك، فالحكيم أصلا لا يكتفي بالنقد المنطقي للآراء كما يكتفي به الفيلسوف، بل يتعداه إلى النقد الأخلاقي لها، لأنه لا ينظر إليها مجردة، وإنما مقترنة بالعمل، فيقوّمها بحسب أثرها العملي، ثم يرتقي بها درجة، فينظر إليها من جهة قيمتها الجمالية، فيأتي بنقده الإشاري لها.

فلنبدأ بتوضيح كيف مارس بديع الزمان هذا النقد المثلّث على الضرب الأول من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التداخلي الذي ينبني، كما تقدم، على مبدأين اثنين هما: «مبدأ تأسيس النقل على العقل» و «مبدأ التوسل بالعقل في النقل».

١,١,٢. نقد التداخل بين الفلسفة والحكمة

أ. **النقد المنطقي**: يرى بديع الزمان أن مبدأ تأسيس النقل على العقل الذي ينبني عليه جمع التداخل هو عبارة عن ترجيح بغير مرجِّح، ذلك لأن العقل ليس أقل من النقل حاجة إلى التأسيس، ولا يمكن أن يكون هذا التأسيس بطريق العقل نفسه متى كان هذا العقل هو «العقل الدائر بين الناس»[١٠] ولم يكن عقلا من نوع جديد لا عهد للفلسفة به؛[١١] كما أن هذا المبدأ يحمل على تأويل النقل بما يفضي إلى تحريفه، لأن العقل المعلوم ليس له من السعة والتجرد ولا من القدرة على الانطلاق ما يستوجبه فهم هذا النقل.[١٢]

ويرى بديع الزمان كذلك أن مبدأ التوسل بمفاهيم العقل في بيان معاني النقل الذي يقوم عليه هذا الضرب الأول من الوصل لا يرفع من شأن النقل، وإنما ينـــزل به، لأن فيه إيهاما بأن الأسس العقلية أعمق وأرسخ من الأسس النقلية؛ كما أنه لا يفيد في الظهور على الخصم، لأنه يبقى منحصرا في دفع الاعتراضات بالطريق العقلي المجرد الذي يأخذ به هذا الخصم، ولا يرقى إلى عرض حقائق النقل بالطريق الذي يمتزج فيه العقل بالقلب والذي تختص به هذه الحقائق،[١٣] هذا إن لم يؤد إلى تزييفها تزييفا كاملا.[١٤]

ب. **النقد الأخلاقي**: يؤكد بديع الزمان أن تعاطي المتفلسف لتأسيس النقل على العقل يصيبه بأمراض قلبية، في مقدمتها مرض الغرور، ذلك لأنه يجعل من عقله الناقص والمحدود معيارا للوحي الذي هو كلام لا حد لكماله؛[١٥] كما يؤكد أن التوسل بالمفاهيم الفلسفية –ولا سيما الطبيعية و «الميتافيزيقية»– في مباحث القرآن يفضي بصاحبه إلى تقديس الطبيعة وترك تقديس خالقها.

ج. **النقد الإشاري**: إن مَثَل الفيلسوف القائل بالتداخل بين الفلسفة والحكمة عند بديع الزمان كمَثَل من يسلك طريقا في جـــوف الأرض –أي نفَقا– أو من يـــأوي إلى كهف،[١٦] فيكون عبارة عن شبح لا يُرى شخصه وإن عُرفت عينه وشُهِد أثره، وينتهي بالهلاك في هذا النفق اختناقا ولَمَّا يُكمِّل سيره، وتكون منـــزلته في القرآن –الذي هو معدن الحكمة– منـــزلة الضال.[١٧]

من ثمَّ، يصبح الفيلسوفان اللذان ذكرهما بديع الزمان بالاسم مرات عديدة، وهما الفارابي وابن سينا معدودَين عنده في زمرة الضالين،[١٨] إذ كانا يقولان بالتداخل بين الفلسفة والحكمة، وهو قول أشبه بسفسطة النصارى؛ وقد ذهب ابن سينا في العمل بهذا القول إلى أبعد مما ذهب إليه الفارابي؛[١٩] ولما كان بديع الزمان قد أُعجب بدهائهما واعتقد الصحة في رأيهما، فقد كاد هو نفسه أن يَحار كما ضلَّا لولا أن الله تجلى عليه باسمه «الحكيم»، فأضحى أهدى سبيلا وأقوم قيلا.

وعلى هذا، فإن العمل بمبدإ تداخل الفلسفة والحكمة يُنتِج إنسانا رقيق الإيمان ضعيف الحجة متعلقا بالظاهر مغترا بنفسه وتائها عن طريقه.

ولننعطف الآن على الضرب الثاني من الوصل بين الفلسفة والحكمة، وهو الضرب التصاحبي، فنبين كيف مارس عليه بديع الزمان هذا النقد المثلَّث، مع العلم بأن هذا الضرب يقوم على مبادئ ثلاثة هي: «مبدأ الاندهاش» و «مبدأ الاستشكال» و«مبدأ الاستدلال».

(*) كلية الآداب، جامعة محمد الخامس - المغرب.

الهوامش:

(١) الشاهد على أن بديع الزمان يميل إلى مثل هذا التخصيص تقييده في أكثر من موضع اسم «الفلسفة» بوصف «البشرية» كما في قوله: «إن سعيدا القديم والمفكرين قد ارتضوا بقسم من دساتير الفلسفة **البشرية**»، **المكتوبات**، ص ٥٦٩؛ وأيضا حرصُه على الإشارة إلى أن إطلاق لفظ «الحكمة» على الفلسفة هو من عمل غيره - أي الفلاسفة - كما جاء ذلك في قوله: «أما ما يسمونه بعلم الحكمة، وهي الفلسفة، فقد غرقت في تزيينات حروف الموجودات وظلت مبهوتة أمام علاقات بعضها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقة»، **الكلمات**، ص ١٤٣؛ مما يشعر بأن ورود هذا الإطلاق في نصوصه هو من باب التساهل في الاستعمال ومجاراة الغير، لا من باب صحة هذا الاستعمال أو الاقتناع به. (نشير هنا إلى أن تسويد الكلمات في النصوص المنقولة هو من فعلنا).

(٢) «نيقولاوس كوبيرنيك» فلكي بولوني (١٤٧٣-١٥٤٣)، اشتهر ببرهنته على دوران الأرض على نفسها وحول الشمس، مبطلا بذلك الرأي القديم الذي يجعل الأرض ثابتة والشمس دائبة الدوران حولها.

(٣) «إيمانوئيل كانط» فيلسوف ألماني (١٧٢٤-١٨٠٤)، أثبت دور الذات الفاعل في تشكيل المعرفة الإنسانية، مفندا بذلك النظرية القديمة التي تجعل للموضوع الدور الفاعل في تشكيل هذه المعرفة.

(٤) يقول: «كان سعيد القديم -قبل حوالي خمسين سنة- لزيادة **اشتغاله بالعلوم العقلية والفلسفية** يتحرى مسلكا ومدخلا للوصول إلى حقيقة الحقائق، داخلا في عداد الجامعين بين الطريقة والحقيقة»، **المثنوي العربي النوري**، ص٢٩؛ انظر أيضا **المكتوبات**، ص ٥٦٩-٥٧٠.

(٥) الملاحظ أن بديع الزمان لا يذكر الكندي كما يبدو أنه لم يذكر فيلسوف المغرب ابن رشد إلا قليلا جدّا، قد لا يتعدى ذلك المرتين: **المكتوبات**، ص ٢٤٩؛ وأيضا **الشعاعات**، ص ٦٦٣.

(٦) يقول: «لما كان اشتغال سعيد القديم بعلمي الحكمة [أي الفلسفة] والحقيقة [أي التصوف] **ويناظر** عظماء العلماء ويناقشهم في أدق المسائل وأعمقها [...]، قد لا يُدرَك قسم منها [أي من ترقياته الفكرية وفيوضاته القلبية] -بعد جهد جهيد- إلا الراسخون في العلم»، **المثنوي العربي النوري**، ص ٣٢.

(٧) **إشارات الإعجاز**، ص ٢٣-٣٣.

(٨) يعتبر بديع الزمان هذه الولادة الجديدة بمثابة تجل لاسم «الحكيم» من أسماء الله عليه، إذ يقول: «كذلك أخوكم هذا الذي لا يُعد شيئا يذكر، وهو لا شيء، قد **وُهب له وضع يجعله يحظى** باسم الله (الرحيم) واسم الله **(الحكيم)** من الأسماء الحسنى. وذلك أثناء ما يكون مستخدَماً لخدمة القرآن فحسب، وحينما يكون منادياً لتلك الخزينة العظمى التي لا تنتهي عجائبها [...] فجميع «الكلمات» إنما هي جلوات تلك الحظوة؛ نرجو من الله تعالى أن تكون نائلة لمضمون الآية الكريمة **﴿ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾**»، **المكتوبات**، ص ٢٣-٢٤؛ كما أنه يؤرخ لهذه الولادة برؤيا صادقة رآها قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، قائلا: «رأيت نفسي تحت جبل آرارات، وإذا **بالجبل** ينفلق انفلاقا هائلا- فيقذف صخورا عظيمة كالجبال إلى أنحاء الأرض كافة، وأنا في هذه الرهبة التي غشيتني رأيت والدتي - رحمة الله عليها - بقربي، قلت لها: «لا تخافي يا أماه ! إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه **حكيم**»، نفس المصدر، ص ٤٧٥؛ وفي كلامه عن «التجلي» و«الجبل» إشارة خفية إلى قصة موسى عليه السلام، إذ سأل ربَّه الرؤية القدسية، فـ﴿تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (الأعراف: ١٤٣).

(٩) **اللمعات**، ص ٣٦٧-٣٦٨؛ ويقول أيضا في موضع سابق: «فما كان من «سعيد الجديد» إلا القيام **بتمخيض فكره** والعمل على **نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة** ولوثات الحضارة السفيهة»، نفس المصدر، ص ١٧٦.

(١٠) جاء هذا الوصف في قوله: «وشاهدت السُّنن كالجبال المتدلية من السماء، من استمسك ولو بجزئي استصعد واستسعد، ورأيت من خالفها واعتمد على **العقل الدائر بين الناس** كمن يريد أن يبلغ أسباب السماوات بالوسائل الأرضية فيتحمق كما تحمق فرعون بـ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ (غافر: ٣٦)»، **المثنوي العربي النوري**، ص ١٦٥.

(١١) إذ يقول: «من الأصول المقررة أنه إذا تعارض العقل والنقل، يُعد العقل أصلا ويؤوَّل النقل، ولكن ينبغي لذلك أن يكون **عقلا حقا**»، **صيقل الإسلام**، ص ٢٩؛ ويقول أيضا في موضع آخر: «إذا تعارض العقل والنقل، يكون الاعتبار للعقل والتأويل للفكر، لكن يجب أن يكون **هذا العقل عقلا**».

(١٢) يقول: «اعلم أيها المتفلسف المرجح للعقل على النقل، فتؤول النقل، بل تحرف؛ إذ لم **يسعه** عقلك المتفسخ بالغرور والتغلغل في الفلسفيات [...]؛ **فعقلك عقالك** وبالنقل نقلتك»، **المثنوي العربي النوري**، ص ١٩٠.

(١٣) يقول: «ولهذا، لا يتمكنون من إعطاء الصورة الحقيقية للإسلام على تلك الصورة من العمل، إذ يطعّمون شجرة الإسلام بأغصان الحكمة التي يظنونها عميقة الجذور، وكأنهم بهذا يقوون الإسلام؛ ولكن لما كان الظهور على الأعداء بهذا النمط من العمل قليلا، ولأن فيه شيئا من التهوين لشأن الإسلام، فقد تركت ذلك المسلك وأظهرت فعلا أن أسس الإسلام عريقة وغائرة إلى درجة لا تبلغها أبدا أعمق أسس الفلسفة، بل تظل سطحية تجاهها...»، **المكتوبات**، ص ٥٦٩-٥٧٠؛ ويقول أيضا: «فلا تجعل مقاييس العلوم الإنسانية **محكًا** لحقائقهما [أي القرآن والمنزل عليه القرآن]، ولا تزنهما **بميزانها** [...]؛ ولا تطلب تزكيتهما بها بجعل دساتيرها الأرضية **مصداقا** على تلك النواميس السماوية.»، **المثنوي العربي النوري**، ص ٣٤٨.

(١٤) **صيقل الإسلام**، ص ٣٥-٣٦.

(١٥) يقول: «فما أجهل من **اغتر** بالفنون الفلسفية وصيرها محكا لمباحث القرآن القدسية!»، **المثنوي العربي النوري**: ص ٧٧؛ ويقول في موضع آخر: «قد شاهدت ازدياد العلم الفلسفي في ازدياد المرض، كما رأيت ازدياد المرض في ازدياد العلم العقلي؛ فالأمراض المعنوية توصل إلى علوم عقلية، كما أن العلوم العقلية تولد **أمراضا قلبية**»، نفس المصدر، ص ١٥٨.

(١٦) انظرْ كيف أن لرمز «الكهف» عند بديع الزمان الحكيم مدلولا هو عكس مدلول «المغارة» عند «أفلاطون» ومدلول «القَبْو» عند «ديكارت»؛ فالنازل في المغارة عند «أفلاطون» هو الإنسان الجاهل الذي لا يعرف من الأشياء إلا ظلالها في مقابل الفيلسوف الذي يعرف أعيان الأشياء ذاتها (محاورة **الجمهورية**، الكتاب السابع)، وهو عند «ديكارت» الإنسان الأعمى الذي يعيش في الظلام الدامس في مقابل الفيلسوف الذي يعيش في النور الساطع (**مقال في المنهج**، الجزء السادس)، بينما هو عند بديع الزمان الإنسان الفيلسوف نفسه، هذا الذي يَعدّه «أفلاطون» العارف بحق ويعدّه «ديكارت» البصير بحق.

(١٧) يقول: «وهكذا، فالطريق الأول هو طريق **الضالين** المشار إليه بـ﴿الضالين﴾، وهو مسلك الذين زلوا إلى مفهوم «الطبيعة» وتبنوا أفكار الطبيعيين...»، **الكلمات**، ص ٦٥٠. ويقول ﴿ولا الضَّالين﴾ فالمراد منه: الذين ضلوا عن الطريق بسبب غلبة الوهم والهوى على العقل والوجدان. إشارة الإعجاز للنورسي، ص ٣٦.

(١٨) يقول: «إن تلك الأرض هي «الطبيعة» و«الفلسفة الطبيعية». أما النفق فهو المسلك الذي شقه أهل الفلسفة بأفكارهم لبلوغ الحقيقة؛ أما آثار الأقدام التي رأيتها فهي لمشاهير الفلاسفة كأفلاطون وأرسطو؛ وما سمعته من أصوات هو أصوات الدهاة **كابن سينا والفارابي**... نعم كنت أجد أقوالا لابن سينا وقوانين له في عدد من الأماكن، ولكن كانت الأصوات تنقطع كليا، بمعنى أنه لم يستطع أن يتقدم، أي أنه اختنق»، **الكلمات**، ص ٦٤٨.

(١٩) **إشارات الإعجاز**، ص ٣٦.

عقالها الحب

نبيلة الخطيب *

ذُكر الرسول ﷺ ففاضت عيناه، فكانت هذه القصيدة من وحي تلك الدموع:

فاضتْ وخلّتْ جماراً في مآقيها — والشوق يستوقد الأعصاب يُذكيها

واهتزّت الروح للذكرى وطارَ بها — فيض من النور يرويها ويُظميها

يا لَلقلوب التي رفّت مُجنّحةً — أهَكذا الوجد يدميها ويرقيها

كنّا عَرَجْنا فعرّجنا معاً رهَفاً — على أمانٍ وذُبنا في معانيها

يا سيّد الوجد كم داريتَ زفرتَه — أنّى إذا ذُكر المحبوبُ تُخفيها

تهفو له النفس والأيام تُرهقه — يميتها البُعد والآمال تُحييها

تحنُّ؟ كُلٌّ بهِ شَوقٌ يهمُّ بهِ — في آخرِ الليْلِ آياتٍ يُصَلّيها

أنلتقي بحبيب الروح ذات ضحىً — هناك في غرفٍ رَقّت حواشيها

يا دامع الطرف لو أن الدّنا جُمعت — وأُدغمت سنواتٌ في ثوانيها

وهُيِّئتْ لك فيها كلُ بهجتها — لكنت أزهدَ من آلت لهم فيها

كلُّ الجنان التي في الوهم مُقفرةٌ — وجنة الروح تزهو في معاليها

ما للمحب، إذا هاجت لواعجُه، — وهذه الأرض، حين الخِلّ يُخْليها؟!

دَنَتْ فكانَتْ هيَ الدُّنيا، ودَيْدَنُها — تُدْني وتُنْئِي مَنْ دَانُوا لَهَا، تِيهَا

عُفافةٌ فيضُها حتى إذا عُمرت — عفَتْ وليس التعافي من تعافيها

لِجَامُها الموتُ لا يَدْري غَيَاهِبَهُ — إلاّ إذا أَسْلَمَتْ للصَّمْتِ شَادِيهَا

تمجُّنا لججُ الأمواجِ لافظةً — مَن كان في حِجرها عمْراً يُجاريها

هي التباريح تَبرينا وما برحتْ — تطارحُ الصبرَ فينا إذ نُداريها

كمن يغض على رملٍ بمُقلته — والريح تَذروه رملاً في بَراريها

نستوضح الفجر لكن أين شُقّتُه — وقد طغى الوقت زحفاً في لياليها

يا مَعقِل الحزن كفكفْ بعضَه جلَداً — واغْرَق بما شئت إن هاجت قوافيها

هي الحياة حَرونٌ عُرفها نزِقٌ — فكن إذا حرَنت بالحِلْم حاديها

تُصغي لهمسك حين الكون في صخبٍ — والصَّحْو يَصدَح ودْقاً في نواصيها

عِقالها الحبُّ والأيامُ شاردةٌ — والدهر يَقبضُ أرساناً ويُرخيها

فكلّما شفّها شَوقٌ وسربَلها — وجْدٌ تناثر ماسٌ في مآقيها.

(*) شاعرة وأديبة – الأردن.

المتاهة

جمال أمين *



بمدينة إسطنبول وفي زمن السلطان عبد الحميد الثاني تلقى الضابط مراد الأمر السلطانيّ بكثير من الامتعاض.. «لا للاستقالة.. لا لترك المهمة المقدسة، حراسة الفرقة العسكرية. قيادتُها في هـذا الظرف العصيب أمر لا يقبلَ النقاش». فـرَك يديه في عصبية.. أهذا جزاء ما قدمتُه من خدمات للخلافة؟.. سـنوات من الأعمال الشاقة العسكرية المتعبة.. تدريبات.. أسـفار.. مغامرات.. كاد مرة أن يذهب ضحية مغامراته في حرب اليونان المرعبة.. هنّأه رِفاقه على النجاة بعد تخلصه من كمين جبلي مُطبق في جوف ليلة سوداء متعبة.. دمعت عيناه.. وجفَ قلبه.. أهذا جزاء سنوات العناء ونكران الذات رغم ضآلة المرتب وشظف العيش وتواصل التعب والكدّ؟

إن حظه الآن يبتسم له، وليلة قدره تنفتح في سعة مطامعه، وكهولته تودّع عمره السارب، وللشيخوخة مطالب ملحّة رغم سلامة بنيته وصحة جسده، فكيف يترك تَرِكة أبيه وثرواته الغنية التي ورثِها أخيرا؟ آه.. آه.. قلّب الرسالتين معا.. رسالة الحظّ النيّر المبتسم تعده بالمجد، بالثراء بالراحة المستديمة، بالتّخلص من مشاغل الجيش المرهقة، ورسالةَ السلطان التي ترفض الاستقالة وتدعوه للاستمرار والبقاء في عمله المقدس.

صمّم على مقابلة السلطان وإعادة الكرة من جديد.. إن الأمر جد في حياته الخاصة.. ومنعطف مهم في مسيرته العمرية. وفي الغد تلقى من الباب العالي خبر الإذن بزيارة قصر «يِلْديز». كان السلطان عبد الحميد يراقب دخوله بنَوع من التمعن والتفحص «الفراسي» النافذ.. يقرأ أعماقه ودواخله الملتهبة وهو يقترب بخطواته من كرسي العرش.. تراءَى له في وجهه الممزّق المطعون صورةُ الجيش العثماني المهترئ وهو يعاني نخر الأمراض المزمنة.. شدّ وجذب بين نداء الواجب وثقلة المطامع والأهواء. أعاد شريط حياته السياسية وهو يتسلم مقاليد الخلافة المريضة.. سنوات قضاها في أجواء المؤامرات والدسائس والنعرات العصبية الآكلة. حاول جاهدا منعها.. صدّها.. تفتيتَها.. وقد لبسته روحُ تيار هادر..راعد.. واعد، يروي ضفاف جغرافية الإسلام الممتدة من الماء إلى الماء أزْيَد من ثلاثين سنة.. أنداء ممرعة تنث روحا وريحانا، أمنا وأمانا. لكن رحى التاريخ تدور.. عجلاته غلابة.. الناس يظنّونه منعما في قصوره.. يعتصر اللذائذ.. يكتنـز الأصفر الرنان والأحمر الفتّان.. لكَم تمنى لو نعم براحة البال في كوخ بسيط منـزوٍ في أعالي جبال «أرارات»، أو في زاوية من زوايا شيخه الروحي «أبي الشامات».. لكنه النداء المقدس.

أفلتت دمعة حرّى من وجهه التاريخي.. تختزن في ملوحتها وحرارتها كل مواجع الدولة المنهارة والحكم الغابر، لم يبصرها الضابط «مراد بك».. دعاه للجلوس.. تحاورا.. حاول السلطان استلاله من إحساسه المادي الضاغط.. بسَط له من الحجج ما يقنع؛ الواجبُ الجهادي المقدس.. الدولة المتداعية.. المسلمون المستضعفون.. الأطماع الغربية.. أمجاد التاريخ العثماني.. أحلام محمد الفاتح.. عراقة الجيش العثماني.. قوّته الضاربة.. الشهادة.. الجنة.. الخلد... كلمات وكلمات تفور كالأمواه الدافقة، لكن الأرض السّبخة ترفضها.. تعافها.. تبخّرها بفعل وهج الشواظ الحارق، كان الضابط يعُدّ الدقائق للانعتاق من قيد الخدمة المتعبة، كلمات السلطان لم تحرك فيه ساكنا. كان تمثال شمع كلّسه الإغراء.. لا يمكنه أن يرفض نعمة سِيقت له سوقا.. كرر طلبه ثالثا بنوع من الإصرار المؤدب وهو يقبّل يده.

ألقى عليه السلطان نظرة غاضبة أحرقتْ كل جسور العتاب الرقيق التي نسجها بحواره الحكيم.. قام من كرسيه يذرع الأرض بخطواته المتّئدة.. طال حبل الصمت.. تسارع وجيب قلب الضابط.. دقّات الحذاء السلطاني المتتابعة تطن في أذنيه كهلوسات حلم غامض.. انتظر كلمة الخلاص.. طال الصمت.. طالت النظرات الغاضبة.. السلطان يمارس معه نفسيا فن إذابة الجليد.. إن الصمت يعذبه.. يسلمه لضميره المغيب.. لإيمانه المقيد.. صراع بين دمائه الفائرة ودموعه الحبيسة.. انتفض خائفا مرعوبا من الاستهواء النفسي الذي مارسه السلطان عليه..

كرر طلبه رابعا بصوت راعش يشب فيه آخر ذبالة من توسلاته الملتاعة.. توقفت النظرات.. سكنت الخطوات.. أبصر السلطانَ يحملق في صورة جدارية للجيش العثماني الظافر.. يمسد لحيته في عصبية غاضبة، لم يتركه السلطان لحبل الصمت كي يلفّ عنقه مرة أخرى.. خاطبه بوجع غاضب مشيحا عنه بوجهه التاريخي: «إنّي أعفيتك، إني أعفيتُك».

خف طليقا من قيده المضني، وامتطى منتشيا قطار الإغراء والإثراء.. يعبر به الريـــاض.. يكرع اللذات بعمق حواسه الظامئة.. اللذائذ تعتصر.. الفرحة تعرش في قلبه المكدود.. جنانه التي تطل على «البوسفور» يتفيّأ فيها أجمل اللحظات.. ينتهبها انتهابا.. وتتلاشى معها أيام «يلديز» بظلالها المستوخمة الثقيلة.. وتتلاشى شهور الخنادق المرعِبة، وسنوات البنادق الدامية.. كوابيس وكوابيس تتوارى في لجة النسيان الطامي.

ويستفيق من غمراته.. أحداث لا تصدَّق.. يا إلهي!.. الخلافة تتهاوى.. السلطان ينفى وراء الشمس.. وأنصاره يعلقون على أعواد المشانق.. يا إلهي يا إلهي!! وتنتفض أعماقه لتقيء رمادا داكنا خنق منافذ حسه الإيماني.. كلمات السلطان الغاضبة تدوي كصفير ريح تقتلع أعواده اليابسة.. دويها يصم مسامعه.. أعاد شريط الوداع بقصر «يلديز» من جديد.. القصر التاريخي الرابض يزأر جريحا مُدمىً في وجهه المصعوق.. قبابه.. أروقته.. شرفاته.. مشاعله المتناوسة.. كلُّها تدوي منتفضِة بكلمات السلطان «إنّي أعفيتك». يا إلهي يا إلهي!! تحاصره أسوار إسطنبول بعذاباتها المريرة خرَّبها الغازي والغزاة.. شاهَد تاريخها مأسورا على أبوابها العتيقة؛ غيّروا معالمها.. وجهها المألوف لديه يستنهضه كي يثأر.. ويقتنص الغزاة بفيلقه الجسور. «آه.. آه يا مدينتي خذلتُك وخذلت بك الإسلام.. آه.. آه..» جلُّ رفاقه في الجيش نُكل بهم.. وأشعل الغازي من رفاتهم شُموعا تُنير له درب المجد الكاذب.. ارتحلوا شهداء كما تعود الطير إلى أعشاشها السماوية.

إحساسه بطعم «الخيانة» ينغرز في وعيه كنصل حاد جارح.. حاضره الخادع يلملم وينقذف في وجهه كالخرقة البالية.. ماضيه يترنّح باكيا.. تمثَّل له امرأةً ثكلى مَنفوشة الشعر.. متّسخة الملابس.. تنعي زوجَها المغيب في غيابة المجهول.. صرَخ الضابط في ذهول حالم: أنا زوجها الضائع المخدوع.. الغائب المخلوع.. أنا الزائف.. أنا النازف.. أنا.. أنا.. أنا...

عاودته ذكرى نشيد «الخلاص».. كان مغرما به.. يحتمي بمواويله الشجية حين تقتلعه شجون الحياة «شفاعة يا رسول الله شفاعة شفاعة..» ورؤوس المريدين تترنح.. والدموع السخينة حبات عقد تطرز جيد القلب الصديّ.. حلَقة المولوية تجتذبه بندواتها وتحليقاتها.. تمنحه الدفءَ.. الوعد.. الخلاص، آه.. آه.. إنه بحاجة إلى جواز سفر.. يضعه قبالة رسول الله.. يخلّصه من المتاهة المخيفة.

قادته خطواته المترنحة إلى باحة مسجد السلطان أحمد التاريخي.. الظلام غشاء كثيف يخفي هواجسه المتوانية.. ذبالة النور تكشف أسرار المكان الغامضة.. استند إلى عموده الأثير لديه.. امتدتْ نظراته إلى الخط الفاصل بين الظلام والنور.. غامت الرؤية.. استطالت الأحجام.. تداخلت الزوايا.. وانسرح الحلم في وعيه الغائب.. وجَد نفسه يقتفي أثر السلطان.. يتابع كلامه.. يطل عليه من كوة وعيه المبصر.. كانت الساحة فسيحة مد البصر.. طبول تدوي.. أعلام تخفق.. جياد تصهل.. السلطان يستعرض الفيالق صحبة رجل مهيب وخلفه يقف أربعة رجال مهيبين.. كل فرق الجيش العثماني الظافر تنتظمها الصفوف.. تحدّق في ذهول صوبَ الرجل «المهيب».. ابتسامته النورانية.. نظراته الحانية.. تلويحاته المشجعة.. تبارك الجميع.. تمنحه الروح والريحان.. والسلطان يعرض عليه الفيالق صفا صفا.. والرجل «المهيب» يبتسم. الفرق تواصل السير.. رفاقه في مقدمتها.. أعلام النصر تطرزها «الشهادتان».. سيوفُهم تتقلقل في أغمادهم.. مدافعهم تزَغرد كل حين.. حناجرهم تدوي بالتكبير.. خطواتهم تسير وفق إيقاع واحد.

أطل من كوة وعيه المبصر.. اللهفة تعتصر قلبه.. انتظر مرور فرقته، طال به الانتظار المملّ.. طابور الفرق يتناقص.. والرجل «المهيب» يبارك.. والسلطان يستعرض.. وتلوح مؤخّرة الجيش.. إنها فرقته.. يا إلهي!! أعلامها منكوسة.. مدافعها خرساء.. سيوفها صدئة.. خطواتها اضطراب وفوضى.. حناجرها تتشقق عويلا..تتوسل بالرجل «المهيب»: «شفاعة يا رسول الله.. شفاعة!». أخذه الدوار.. لفه جلال اللحظة.. تعلق بصره الزائغ بالوجه النبوي المهيب.. أحس كيانه يهتز.. ذراته وخلاياه تندمج في هرمونية الموال الشجي «شفاعة يا رسول الله.. شفاعة.. شفاعة!». أبصر السلطان يقترب من الوجه النبوي المهيب وخلفه وجوه الخلفاء الراشدين المسفرة.. يسر له حديثا هامسا.. يعزز حديثه بالحركات الدالة.. الوجه المهيب يكسوه الغضب.. يتوجه نحوي.. يا إلهي يا إلهي! ماذا أسمع؟

الساحة الواسعة المكتظة تنتفض للنداء النبوي القاصم.. تردده جنباتها.. أصداء تلتوي شعلا مرعدة كاوية تردد في وجع غاضب: «وأنا أعفيتك.. وأنا أعفيتك.. وأنا أعفيتك.. وأنا أعفيتك وأنا.. وأنا.. و...»

(*) كاتب وأديب مغربي، وهذه الأقصوصة مستوحاة من قصة واقعية رواها الشاعر التركي محمد عاكف.

النهاية الحتمية :

موت الكون

أورخان محمد علي *

في العدد الأول من مجلة «حراء» تناولنا آخر نظرية مقبولة لدى الأوساط العلمية حاليًا حول مولد الكون، وهي نظرية «الانفجار الكبير» التي تستند إلى الحقيقة التي اكتشفها العلم، وهي حقيقة أن الكون يتوسع باستمرار وبسرعة كبيرة. فقال العلماء بأن مادة الكون كانت متركزة في السابق في نقطة واحدة حجمها صفر تقريباً، وأنها انفجرت ونشرت مادة الكون في كل اتجاه، وأن الكون بدأ يتوسع منذ ذلك التاريخ وحتى الآن. وأشرنا إلى الأهمية الفلسفية لهذه النظرية، فقلنا بأنها أنهت أسطورة أزلية المادة وأزلية الكون، وأثبتت أن الكون خلق في لحظة واحدة. وما دام هناك خلق فلا بد أن هناك خالقًا؛ لأن هذا الانفجار الهائل لم يكن كأي انفجار آخر؛ إذ كل انفجار يؤدي إلى الفوضى والتشتت والهدم. بينما أدى هذا الانفجار إلى تشكيل كون منظَّم غاية التنظيم. إذن فَيَدُ القدرة اللاّنهائية والعلم المطلق الذي لا تحده حدود قد تجليا في هذا الخلق بشكل واضح.

تعددت الأسباب والموت واحد

ولكن هل سيتوسع الكون باستمرار؟ هل تنتصر قوة الجاذبية على قوة التوسّع الكوني؟ أم يكون العكس هو الصحيح؟ هناك احتمالان في هذا الصدد:

الاحتمال الأول: وهو أن سرعة التوسع ستتباطأ تدريجيًّا بفعل قوة الجاذبية ثم تقف، وبعده سيبدأ الكون بالتراجع نحو الوراء، أي ستندفع المجرات وجميع الأجسام السماوية والفلكية الموجودة في الكون نحو المركز، وسيتقلص الكون وينكمش على نفسه بفعل قوة الجاذبية، حتى يرجع الكون كله ويتركز في نقطة واحدة صغيرة جدًّا قد تبلغ الصفر، أي يعود الكون إلى حالته الأولية. وهذا معناه طبعًا موت الكون وفناؤه قبل أن يصل إلى هذا الحد بوقت كبير.

الاحتمال الثاني: إن قوة الجاذبية لا تستطيع التغلب على قوة التوسع الكوني. أي إن الكون سيبقى في توسع دائم إلى الأبد.

وهل معنى هذا أن الموت لن يكون مصير مثل هذا الكون المتوسع على الدوام؟ لا يستطيع الكون حتى في الحالة الثانية أن

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾



يتجنب النهاية الحتمية لكل مخلوق وهي الموت؛ لأن مثل هذا الكون المتوسع بعد أن يستنفد وقوده بتأثير عمليات الإشعاع الجارية في جميع النجوم، فإنه يموت لا محالة. وفي هذه الحالة يكون الكون مثل مقبرة هائلة متوسعة لا أثر للحياة فيه.

الكون المفتوح

ولكن ما الذي يقرر انتصار قوة الجاذبية أو انتصار قوة التوسع الكوني؟ والجواب على هذا السؤال هو: إن كان التوسع الكوني بالمقدار الذي تستطيع بها المجرات من الإفلات من قوة الجاذبية فإن التوسع سيستمر دون توقف. وهذا هو نموذج «الكون المفتوح». أما إن كانت سرعة الكون أقل من سرعة الإفلات هذه فإن توسع الكون سيقف بعد مدة، ويبدأ الكون بالانكفاء على نفسه وبالتراجع القهقرى. وهذا هو نموذج «الكون المغلق».

وما هي سرعة الإفلات؟ هي أصغر سرعة لازمة للإفلات من قوة جاذبية مكان ما. فمثلاً إن سرعة الإفلات بالنسبة لأرضنا هي ١١,٢٣ كم/ ثانية. أي إن أطلقت صاروخًا بهذه

السرعة فإنه يستطيع التغلب على الجاذبية الأرضية وينطلق إلى الفضاء. وإن كانت سرعة الصاروخ أقل من هذه السرعة (ولم تكن على مراحل متعددة) فهو يقطع مسافة معينة، ثم يقف، ثم يبدأ بالسقوط والرجوع إلى الأرض لتغلب قوة الجاذبية عليه. ولكل نجم أو كوكب أو قمر سرعة إفلات خاصة به.

ولكن هل سرعة توسع الكون تبلغ سرعة الإفلات؟ أي هل هي أكبر من قوة الجاذبية في الكون أم أقل؟ هذا الأمر مرتبط بالكثافة الحالية للكون. فإن كانت هذه الكثافة تبلغ ما نطلق عليه اسم «الكثافة الحرجة»، فمعنى هذا أن قوة الجاذبية الموجودة في الكون تكفي في المستقبل لإيقاف توسع الكون. أما إن كانت أقل فإن الكون سيبقى متوسعًا على الدوام.

فهل متوسط الكثافة في الكون يبلغ الكثافة الحرجة؟ قام العلماء بحساب الكثافة الحرجة فوجدوا أنها تساوي

٤,٧ X ١٠$^{-٣٠}$ سم^{٣} وهذا يعني أنه لو كانت هناك مادة في الكون بمعدل ثلاث ذرات هيدروجين في المتر المكعب الواحد لبلغت كثافة الكون الكثافة الحرجة. ثم قام العلماء بحساب كثافة الكون فوجدوا أنها تبلغ بضعة أجزاء من هذه الكثافة الحرجة.

هل معنى هذا أن الكون سيستمر بالتوسع؛ لأن كثافته لا تبلغ الكثافة الحرجة؟ لا يمكننا قول هذا بشكل أكيد؛ لأن ما حسبه العلماء من كميات المادة الموجودة في الكون كانت الكميات التي استطاعوا مشاهدتها بالأجهزة البصرية والراديوية. وهناك كميات هائلة من المادة لم تدخل في هذه الحسابات، منها على سبيل المثال «الثقوب السوداء» التي لا نكاد نعرف عنها شيئًا، ثم هناك ما أطلقوا عليها اسم «الكتلة المفقودة» في الكون؛ فقد لاحظوا أن كمية المادة المشاهدة في المجرات لا تكفي أبدًا لإبقاء هذه المجرات متماسكة، بل تحتاج إلى عشرة أضعاف هذه المادة؛ لكي تبقى في تماسك وتوازن. إذن فالكثافة المحسوبة للكون ليست هي كثافتها الحقيقية، وقد تبلغ كثافتها الحقيقية «الكثافة الحرجة».

الكون المغلق

ماذا يحدث في نموذج «الكون المغلق»؟ تبدأ سرعة التوسع الكوني بالتناقص تدريجيًّا حتى تبلغ الصفر أي يقف التوسع تمامًا، ثم يبدأ الكون بالاتجاه والتراكض نحو مركزه وبسرعات متزايدة بمرور الزمن. في البداية لا يظهر هناك تأثير واضح، فكل شيء سيبدو اعتياديًّا ولمليارات السنين. ولكن ما إن يبلغ الكون ١٪ من حجمه الحالي حتى تبلغ درجة حرارة الفضاء -التي هي قريبة الآن من الصفر المطلق- درجة حرارة الأرض في النهار. وبعد ملايين السنين سيبلغ بريق الفضاء حدًّا لا يُطاق وترتفع الحرارة إلى ملايين الدرجات. وقبل الوصول إلى هذا الحد يكون جميع أنواع الحياة قد انقرضت وفنيت، ثم تبدأ النجوم بالذوبان في حساء كوني مؤلف من أجزاء الذرات ومن إشعاعات. حساء تبلغ درجة حرارته بلايين الدرجات، ثم يصغر الكون ويصغر.. حتى تبلغ حجم نقطة صغيرة قريبة من الصفر ويتحول إلى «ثقب أسود». أي يصل إلى حالة التفردية (Singularity)؛ حيث تنقطع علاقته مع الزمان ومع المكان، ولا تعود القوانين الفيزيائية جارية فيه.

ولكن بعض العلماء الملحدين الذين رأوا إفلاس إلحادهم أمام هذه النظرية اقترحوا أنموذجًا ثالثًا للكون هو الأنموذج «النبضي» أو «المتذبذب»، وخلاصة هذا المقترح هو أن الكون يتسع منذ الأزل بانفجارات كبيرة، ثم ينكمش ويتقلص على نفسه، ثم يتوسع بانفجار كبير آخر... وهكذا دواليك. إذن فهنا كون أزلي، لا بداية ولا نهاية له. وقد أعجب بهذا النموذج بعض العلماء الملحدين الذين لا يستسيغون فكرة «الخلق» وفكرة «القيامة»، أو نهاية الكون.

ولكن هذا الأنموذج لم يستطع الوقوف أمام معطيات العلم وأمام الحقائق العلمية؛ لذا نرى أنه وضع على الرف وتم إهماله تمامًا في الأوساط العلمية؛ لأن العلم لا يعرف أي إمكانية لكي يتوسع الكون بعد تقلصه ووصوله إلى حالة «التفردية»؛ لأن الثقب الأسود مثلاً -وهو مثال مصغر جدًّا عن حالة التفردية التي يبلغها الكون في نهاية المطاف في التقلص- لا يستطيع الخلاص من هذا الوضع، فكيف بالكون بأكمله؟ ثم هناك مشكلة أخرى أمام هذا الأنموذج وهي مشكلة الإنتروبيا (Entropy). وهي أنه في كل عملية تحول وتغير هناك قسم من الطاقة يتحول إلى شكل غير قابل للاستفادة منه. وعندما يصل الكون إلى حالة التفردية لا توجد هناك طاقة قابلة للاستفادة منها، أي يستحيل تحول الكون في هذه الحالة من وضع إلى وضع آخر؛ إذ لا توجد الطاقة التي يمكنها القيام بهذا التحويل.

إذن فسواء أكان هناك الأنموذج المفتوح أو الأنموذج المغلق للكون، فالموت هو المصير الذي ينتظر الكون. ولا يعني هذا أن نهاية الكون ستكون بأحد هذين السبيلين؛ لأن احتمالات نهاية الكون احتمالات عديدة جدًّا يمكن أن تملأ كتابًا كاملاً.

هذا عن الكون، أما عن كوكبنا وعن الشمس والمجموعة الشمسية فإن عمرها ليس طويلاً إلى هذه الدرجة، فعُمر الوقود في الشمس أقل بكثير من عمر الكون بأجمعه.

(*) كاتب وباحث تركي.


حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
محمد
بفضل رسالتك التي كانت تبشّر بحلّ كل مشكلة
وتلبية كل حاجة وتحقيق كل أمنية وكل أمل،
انشرحت الأنفس وتفتحت الآمال في الأرواح،
فبدأت نسائم الأمل تهب على القلوب التي كانت
تتقلب على جمرات اليأس،
وصدحت أنغام الأمل والسلوان في كل مكان.
ISSN 1306-1879
03
9 771306 187009